الثقافة

مجلة فكرية تصدر في دمشق

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الثقافة

فكرية جامعة

تصدر في دمشق

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكّاش

الادارة والتحرير

ص.ب ٢٥٧٠

هاتف « ٢٢٩٩٨٤ »

دمشق - الجمهورية العربية السورية

REVUE

« AL_SAKAFA »

PROPRIETAIRE – DIRECTEUR EN CHEF

MIDHAT AKKACHE

DAMAS R. A. S.

B. O. P. 2570

Te L. 229984

تشرين ثاني ١٩٧٨

الواحلون

اذا كان صدور هذا العدد من مجلة الثقافة يواكب حادثين كبيرين • وداع المرحوم احسان العظم العلم حادثين كبيرين • وداع المرحوم احسان العظم العلم الجهيذ في الثقافة والعلم • وتأبين الشاعر الشيخ عبد اللطيف حبيب الصالح وهو الذي وقف حياته للادب والفكر والعلم ، زاهدا متقشفا ، بعيدا عن الاضواء الساطعة ، يناضل بصمت وصبر جميلين نابعين من ايمانه العميق بالمثوبة في الدار الاخرة ، فاننا نكرم احسانا باصدار الملف الخاص عن حفل تأبينه الذي أقامه المركز الثقافي في حماة • ونأمل أن نوفق في اعداد ملف اخر نكرم به فضيلة الشيخ عبد اللطيف حبيب الصالح •

واذا جرت العادة ان يكرم العلماء والادباء بعد موتهم ، فاننا نجدد الدعوة الصادقة لادباء هذا الوطن أن يبادروا الى تكريم رجالات الفكر وحملة الاقلام وهم على قيد الحياة تقديرا لهم وعرفانا بفضلهم ، لان تكريمهم في حياتهم جرعةأمل تبعث في قلوبهم النشاط والامل والعطاء وتخفف عنهم أسفار الزمن وتواسي شيخوختهم •

رئيس التحرير

وداعاً ايها الشعر

علي المصري

وداعا ايها الشعر ديوان شعري رفيع للاديب السعودي الكبير احمد محمد جمال . عضو المجلس الاستشاري السعودي ، واستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الملكعبد العزيز ، وعضو اتحاد المنظمات الاسلامية العالمية ، وعضو اللجنة الثقافية برابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة .

والاديب احمد محمد جمال ذائع الصيت واسع الشهرة غزير الانتاج معروف في الاوساط العربية والاسلامية كناثر ومفكر اسلامي ومنظر ، ولا نعرف عنه قول الشعر حتى وقع ديوانه الرفيع ـ وداعا ايها الشعر ـ بين ايدينا مجددا ، بدأ الاديب احمد محمد جمال حياته الادبية بقرض الشعر . وقد جمعه ليطبع نتاجه الاول في ديوانشعري اطلقعليه اسم ـ الطلائع ـ وذلك عام ١٣٦٦ هـ ١٩٤٦ . ويضم الديوان قصائد مختلفة الالوان والافكار والمذاهب ، تلك القصائد التي قدر لها ن ترى النور في فترات مختلفة تصدرت صحف ومجلات السعودية ومصر العربية وغيرها . ثم يشاء القدر أن يكون هذا الديوان ـ الطلائع ـ الاول والاخير للشاعر لينتقل بعد ذلك فيصبح علما من اعلام الفكر الاسلاميالمعاصر مؤلفا لمجموعة منالاسفار القيمة، ومحاضرا ومحدثا في مختلف المواضيع الاجتماعية والانسانية والسياسية والدينية على وجه الخصوص ، ليمنح المكتبة العربية والفكر العربي زادا سيبقى معينه الفكري سلسبيلا عبر العصور، واشهر مؤلفاته المطبوعة والمتداولة :

١ ـ على مائدة القرآن .. دين ودولة .. طبعتان ..

٢ ـ على مائدة القرآن .. مع المفسرين والكتاب .. طبعتان .

٣ ـ محاضرات في الثقافة الاسلامية .. الطبعة الرابعة ..

٤ ـ مفتريات على الاسلام .. الطبعة الثانية .

٥ ـ كرائم النساء .. الطبعة الثانية .

٦ ـ نحو سياسة عربية صريحة .. ابحاث سياسية وتاريخية ..

٨ ـ مكانك تحمدي .. دراسة عن المراة والاسرة طبعة ثانية ..

٩ ـ الطلائع .. ديوان شعري ..

١٠ ـ سعد قال لي .. مجموعة قصص اجتماعية ..

١ ـ ماذا في الحجاز .. تراجم ونماذج ادبية .

١٢ ـ من اجل الشباب .. طبعة ثانية ..

١٣ ـ واخيرا وليس اخرا ـ وداعا ايها الشعر ـ ديوان شعري وهو موضوع دراستنا .

يقع هذا الديوان ـ وداعا ايها الشعر ـ في خمس وتسعين صفحة من القطع الكبير . من منشورات نادي مكة الثقافي لعام ١٣٩٧ هـ بمطابع دار الثقافة بمكة المكرمة .

يبدا الديوان بحوار مع الشاعر ، اجراه اديبان سعوديان من الادباء الشباب ، نلمح من خلاله تمسك الشاعر بالقيم الادبية الراسخة الجذور في ادبنا القديم ،وتشتشف حب اديبنا للتراث ، وايمانه العميق الذي لا يتزعزع بحرية الادب والادباء ، وافكارا اخرى تدل على النضج والوعي العميق .

ثم يلي ذلك محاضرة قيمة للاديب احمد محمد جمال القاها في مؤتمر الادباء السعوديين الذي انعقد بمكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ وهي محاضرة رفيعة القدر جليلة المعاني يصر فيها الاديب على ان لا ادب بدون حرية ، ولا ادباء بدون مناخ ديمقراطي مشبع بالحرية والعطاء . ويركز الاديب فيها على نقطة جوهرية اخرى وهي الالتزام وهنا يقدم الاديب اراء ناضجة جيدة ويشرح لنا الالتزم النابع من ذات الاديب وحريته الطوعية ، ويميز بينه وبين الالزام الذي يتبع في كثير من الاقطار التي اختنقت فيها حرية الادب والادباء ثم يقدم اراء موضوعية من محنة الادب السعودي ، ويحدد مسؤولية الادباء للنهوض بهذا الادب ووسائل تطويره وتجديده بنفس فكري لا نجده عند اي من الكتاب في ارقى الممالك والدول ديمقراطية وليبرالية .

ويمكننا ان نقسم هذا الديوان الى الاقسام الاربعة التالية :

آ ـ يبدا القسم الاول من الديوان بقصيدة ـ متشايخ ـ وهي قصيدة وجدانية فيها من الهمس والبوح ما يرقى بها الى مصاف امثالها عند الشعراء الاخرين ، وفيها من اساليب لخبر وانشاء ما يجعلها حية نابضة تحاكي اساليب الفحول من الشعراء ونقتطف من روضها الابيات العذبة التالية :

وقائل : ما الذ الشعر ترسله
فقلت ويحك ، هذا من دمي الغالي

وسائل فيم لا تهوى ؟ فقلت له
اهوى ، ولكن باغماض ، واجهال

وهاجر يتمنى عرض مظلمتي
فما اجتنى غير اعراضي واغفالي

.. دنيا من الامل المألوم يسعدني
لو عشت فيها بلا قلب ولا بال

ففي هذا القسم من الديوان نرى اللمحة الفلسفية والفكرية تطغى على النامة الشعرية والنفس الموسيقي ففي قصيدة ـ من انا ؟ ـ يقول :

ويا نفس ! ان اسالك عمن اكونه
فلست ببدع في الذي انا سائله

لست الذي يؤذيه في الشرق ان خلت
به حقب ، والغرب فيها يخاتله

يناشله امجاده .. وعلومه
ويغدو اليه ناسبا ما يناشله

ويكربني ان اشهد الغرب يدعي
جهاله هذا الشرق وهو يجامله

اما في القصيدة التالية ـ من نحن ؟ ـ فيقول :

نحن من نحن ؟ اننا للمعالي جنودها
وحيال العدا لنا وقفات نجيدها

نوهن الخطب موهنا

وتفدي المواطنا

نحن فيها عبيدها

وكذلك نجد الجانب القومي بارزا في هذا القسم من الديوان .

فالشاعر لا يدع مناسبة قومية تمر على امتداد الساحة العربية الا ويؤرخ لها بقصيدة . فميلاد الجامعة العربية يثير في اعماقه الامل بوحدة العرب ، فينظم فيه القلائد المجيدة مؤكدا مقومات الوحدة من لغة وتاريخ ودين وامال والام ، منبها العرب الى ما وصلوا اليه من تهاون وفساد ، مناشدا ضمائرهم التمسك بعرى العروبة والاسلام ، ليعيدوا لهذه الامة عزها التالد ، فيقول :

تبدت ، وكم علانيت طول تلفت

فنافسني الانظار غيري ، فاغضت

ولكنها اغضاءة الوجد كامنا

كمنسي قوم سيم هجران غفلة

.. ارى الدين والفصحى وارحام معشري

وتلك هي الجماعة الشمل ـ شتت

فلا حرمة للحق تحمي اعتقادكم

من الزيغ نحو الزيف في كل خطة

.. قلتم ولكن بعد ان ترعوا الخطى :

بنو الشرق في اسلامهم خير امة .

ـ وجلاء الفرنسيين عن سورية العربية يبعث فيه الحميا ويثير في جوانحه الاعتذار ، فينتفض الشاعر جذلان لينظم ملحمة النضال العربي السوري بعنوان ـ مرابض الاسد غضبى ـ :

.. من قال : لن نتخطى عهد غفلتنا

ولن يفوت العدا سلطانهم فينا

.. حتى اذا بلغ السيل الزبى صرخت

فينا الدماء انتصافا غير باغينا

فتلك سورية الفيحاء اعنتها

حكم الفرنسيس ، تحكيما وتقنينا

كم انفقت من دم زاك ، تناضلهم

ولم تبال بقتلاها ملايينا

ودك بالقنبل الهدام عامرها

فويل باغ يظن الجور تمدينا

وهاهي اليوم تسقى نخب محنتها

عذبا .. جلاء مذليها ، اذلينا

فليهنا العرب ، هذا اليوم فاتحة

لان نعيش طليقي العيش ، واعينا

مرابض الاسد غضبى ان تسورها

بيض الكلاب اغترارا من تلاهينا

ـ والشاعر مدرك تمام الادراك ابعاد المأساة التي دهت امتنا العربية وان الغرب وراء كل محنة ومصيبة فهو حامل على الشرق حملة شعواء لاهوادة فيها ولا رحمة ، كيف لا والغرب يعيش على خيرات بلادنا ومرتكزاته الفكرية والعلمية من بقايا تراثنا ، فهاهو الشاعر يثور في وجه بعض ادباء العروبة الذين احزنهم سقوط باريس امام اجتياح هتلر ، فيسخر منهم

بقصيدة تتماوج فيها الروح العربية ويتلاطم في خضمها فكر الشاعر الغاضب ، كيف لا والدم العربي مـازال مطلولا في شوارع سوريا ولبنان والجزائر وغيرها مـن دنيا العروبة ، فيقول بقصيدته ـ القوميات الزائفة ـ :

اسفا لكتاب بمصر بكوا علـى
باريس اذ غشى الدجى انوارها

واستهدفت للحرب يوريها بها
اعدى عداها قاحما اسوارها

واحتلها ـ الالمان ـ واستعلى بها
متحكما ، وسقى الاذى احرارها

.. اسفا لقوم سيم اخوان لهم
في الشرق من افرنسة اخطارها

وسقوا اذاها في قساوة حكمها
وبلوا بها واستنكروا استعمارها

..ويولولون لخطبها وهي التي
شكت ـ العروبة ـ ظلمها واسارها

اسفا لناس اظهرت حر الشجا
لفرنسـة ، وبكت لها منهارها

نسيت عروبتها وخانت دينهـا
عجبا لها ناسا تحب خسارها

تبا لكم ولها ومن جاراكم
فبكى او استعدى لها ، فاجارها

ـ اجتماع المسلمين على عرفه يوقظ في الشاعر امجاد الاسلام واشواق النبوة وعز العرب ، فيخلـد الحج والحجيج بقصيدة رائعة عنوانها ـ الحج اسمح فرصة ـ :

.. بني النيل ، اورواد زمزم مرحبا
بكم حيثما تثوون مكة او مصرا

وما مكة ؟! آه اليـت بامسهـا
افاءت على الافاق من خيرها الوفرا

وما مكة ؟! آه اليـت بامسهـا
ترامت على الامصار من دينها البشرى

.. بني بردى والنيل .. ابناء دجلة
وزمزم .. هل تدرون مشكلة كبرى

يسوء العلا والدين حال جفائنا
وان سرقو ما حيروا ميلنا شبرا

ليؤسفني ان العراق وان دنا
بعيد ، فما اخباره عندنا تدرى

كذلك سوريا القريبة لم نحط
بآمال اهليها والامهم خبرا

كذلك اطراف البلاد جنوبهـا
ومشرقها لم ندر ماذا بها يجرى

لئن كان حكم الارض باعدبيننا
وافسدت الاعداء احوالنا خترا

فقد اصلحت ما بيننا وحدة المنى
وقد جمعت اشتاتنا جمعة الذكرى

وقد جاء هذا الحج اسمح فرصـة
لتوليد عهد لايباع ولا يشرى

ـ ويوم الهجرة يذكي خضيل الذكريات ويؤجج اعطر الاشواق وذكرى ـ ثور ـ تركب الشـاعر متـن القوافي ، فينشد :

تجرمت الاحقاب تترى ولم تزل
تداود ذكراك الخوطر ـ يائور ـ

سمعنا بظهر الغيب فيك مقالة
ـ لاحمد ـ لا يأتي على خلدها الدهر

يقول ـ وقد ابدى المخافة خلة :
رويدك لا تحزن ، فثالثنا البر

اتخشى ؟ وقد واثقت ربك لا تني
جهادا الى ان يستقيم لنا الامر

.. انتساك ؟ والذكرى بنا مستمرة
لتاريخنا اذ كان اوله ـ ثور ـ

ـ وميلاد النبي العربي عليه السلام يذكر الشاعر بماضي الاسلام والعرب المجيد ، ويؤرقه حاضرهم التعيس فينشد من وهج شرايينه ودفق قلبه :

لله ماض لنا مازلت اذكره
في الفجر والزهر ، من حسناه ، اشباه

ماض اذا دومت في جو فاكرتي
ذكراه احنيت اجلالا لذكراه

واوهت كبدي من هون حاضرنا
اذ نحن في اللهو والسوءى اهناه

وحرت في الغد ، ماذا فيه يفجأنا
وهل على اليسر ام بالعسر نلقاه

بالامس كنا ولاة الكون نعجره
بالعدل والفضل ادناه واقصاه

والسلم نؤثرها ، والحرب نسعرها
لا نعتدي ، ووغانا النصر عقباه

واليوم ، مابالنا من بعد رفعتنا
في الكون نزحف زحفا في زواياه

ـ والوحدة العربية ديدن الشاعر وهاجسه الذي يؤرقه على الدوام ، وهو يستصغر شعرا ينشد لغير الوحدة العربية وعزتها :

دعا المجد شعر ، مرحبا بك داعيا
ولا مرحبا بالكاسيات عواريا

وما انت في حسي ، سوى وحدة الورى
ورى العرب دانيهم ومن ظل قاصيا

ولا انت الا نهضة ترجع العلا
علا العرب او تبنيه بالحق ثانيا

.. وقفت على حفز العروبة خالصا
غرام فؤدي ، والخطى ، والقوافيا

وما ثمن الاشعار ينشدو بها الفتى
اذا لم تنظم في العلاء مثانيا

.. وان هو لم يصبح ولم يمس بالهدى
وبالوحدة العصماء جهرا مناديا

الا ان شعرا قيل في غير امتي
وتحميسها للمجد لم يك غاليا

وما المجد الا ان تعيشوا بوحدة
وفاق وحب ينجحان المساعيا

ـ ويحزن الشاعر ان يرى وطنه وابناء قومه اذلاء امام الاعاجم والمستعمرين، فينتف قلبه غناء شجيا على مذبح الوطن والمواطن ، فينوح بتفجع :

رباه ! ادبرت الدنيا بعزتنا
الى الاعادي فعزوا في مغانينا

يؤرث الغيظ صدري ان يرى نفـر
منا خوادم اعجام ملاعينـــا

ياحطة العرب عن دين يمجدهم
وضيعة الدين في عرب اذلينـــا

ـ وفي هذا القسم من الديوان نفحات وجدانيـة رقيقة تتناغم فيها الحـروف وتتهامس فيها القوافي بايقاع جميل يتناسب مع رقه المعاني فمن قصيـدة ـ مع شاعر الاطيار ـ نقتطف البراعم التالية :

فؤاد تغاديه المنى وتراوح
ونفس يعاشيها الاسى ويصابح

اهم ؟ ولما يمض بالعمر فجره
يجد معي حينا ، وحينا يمازح

ايا شاعر الاطيار ذرني وروعتي
فليس سواء ذو شجون ومارح

ـ وفي هذا القسم من الديوان معارضات للفحول من الشعراء في العصر الجاهلي كقصيدته انا والليـل والتي صنفها في الديوان بعنوان ـ اشجان ـ :

وليل، ولا كاليل احمدت الفه ،
دجي ، شجي ما يطاق ثقيل

ابيت به والقلب عبران من دم
ومفتكري بالذكـريات حفيل

ابيت به لا الشمس ارجو طلوعها
علـي ولا للطالعـات افـول

ـ ويكثر في هذا القسم الشعر الاجتماعي الـذي يصور شرائح اجتماعية تقطر الما وعذابا ، فهاهو يعقد مقارنه بين طفل مدلل واخر بائس امام قدوم العيـد بقصيدة بعنوان ـ سيازف العيد ـ :

سيازف العيد .. يا بشراي
يقولها مرح الاعطاف والجيـد

ابو يلقمه حلوى ، ويلبسه
استبرقا ، بين تدليل وتمجيد

وامـه تتلقاه باذرعهـا
بـامة ، بين ترقيص وتغريـد

وبيته معرض الالعاب ، مختلفا
الوانها ، من هدايا او تقاليـد

فاين منه يتيم غير مكتفـل
واين فيه عجي غـير مودود

واين منه وليد بين عاريـة
ومفلس بائـس العمر من عيـد

واين منه فتاة غير حاليـة
كـسيفة الصدر ، في اهل مجاربـد

ـ وعلى لسان اليتم يحدثنا الشاعر في قصيـدة له بنفس العنوان ، عما يكابده الايتام من عنة وشقاء وعما يدور في خواطرهم وعلـى السنتهم من غصص وآلام :

ابي اين يمسي مطعمي ؟ اين مشربي
ابي السـوق ، بئس السـوق لي متقلبا

وكيف مبيتي في دجاي على الثرى
وما مأمني آوية ؟ ان خفت مرعبا ؟

وكيف معاشي في نهاري على الطوى

وهل سوف القى فيه ملهى وملعبا ؟

ومن يشتري لي ملبس حين ينتهي

مزيقا ؟ ويكفي حاجتي ما تصعبا

وفي دار من يلغى سباتي مضجعا

وفي مال من يلغى معاشي مرحبا

ـ ثم نجد في نهاية هذا القسم من الديوان قصيدة فلسفية فيها محاولة لسبر اعماق المجهول والوصول الى المحجة والخلاص عنوانها ـ الوردة الشائكة ـ يقول فيهـا :

جمالك يغري العقل بالسبح في الهوى

فبادرة الوجدان اعذر في السبح

جمالك يوحي بالثناء لماهر

اجادك تذكارا على بارىء سمح

ولكن سرا فيك ، ينهش علمه

فؤادي ويمتاح المدامع للسفح

.. اخي وندائي هاهنا عطف اسف

على بلبل يستبدل الطين بالروح

.. الا انني ، من حيرتي فيك ، ابتغي

لديك بيانا سوف اطويه في جنحي

ـ واخيرا نجد في نهاية هذا القسم من الديوان قصيدة بعنوان ـ نحن الادباء ـ يتحدث فيها عن مهام الادب والاديب في كشف العمايات وهتك الستر امام المدلجين على الدروب في دروب الحياة الخيرة ، وعلى القادة استلهام رؤاهم ووضعها موضع التنفيذ ، والا تبقى تطلعاتهم صرخة في واد ، وفيها يقول :

مالنا بالنا ننتضي الاقلام مشرقة

بنهج ما غم من اهداف محيانا

فلا نرى عاملا بالراي متبعا

للنهج ، مستيقنا اخلاص شورانا

هذي المشاكل ما تنفك غاشية

حياتنا ، فهي في التعليم احيانا

وحول تربية او حول تغذية

وغير ذلك مما منه شكوانا

مابالنا نكتفي بالفحص في عجل

دون العلاج لمعلولات دنيانا

فياكبارا عليهم نيط مأملنا

وعندهم دوننا تحقيق مرمانا

لكم علينا الحلول الغر شافية

صدى مشاكلكم سرا واعلانا

لكنما قدرة التنفيذ عندكمو

فالفعل معناكمو ، والقول معنانا

ب ـ والقسم الثاني من الديوان بعنوان ـ صلوات وتسابيح ـ وفيه نقع على مجموعة من القصائد التأملية هي عبارة عن مختارات مما قيل في التوجه الى الله العلي القدير برجاء او قنوط او علة او هزيمة او انتصار .

ـ ففي قصيدة ـ ع شاعر السماء ـ نجد المعاني الرائعة التالية :

ايها اللاعب في حضن السماء
ايها الغائض فيها بالرواء
ايها الساكب في مد الفضاء
نورك الحالم حلم العقلاء

ايها الراني بين الكبرياء .. من عـــل .. تمقت اسفاف البشر

انا بدر كدنياك اريـد
مثلا اسمى لكون لا يبيد
لا يرى فيه بغاة او عبيد
فكرة تحقيقها جدا بعيد

ولهذا اضاق عن روحي الوجود .. فهي روح من جمال تحتضر

ـ وفي قصيدة بعنوان ضحك يؤكد الشاعـــر انتصار الحق مهما طال ليل الباطل والبغي :

واضحك لا ظنا بنيل رجيتي
ولكن لعزم الخصم الا انولا

.. اردت صلاحا فاقتفاني مزلزلا
خطاي ولكني ابيت التزلزلا

ففي النفس الا بأس ان يهزم الهدى
قليلا ، فخصم الحق يهوى ، وان علا

وفي نفحة شعرية بعنوان صلاة نجد تمســـك الشاعر بالقيم الروحية الساميـة والاستعانة ببـارىء الكون والناس :

رباه ! اني بملء القلب ، لا بفمي
اقول نحوك تفويضي وتعويلي

وان لي الثقة العليا بما ملكت
يداك ، لا بالذي يجنيه تحصلي

واني منك راج ان تخولني
تقواك سرا وجهرا في مفاعيلي

ـ وفي خاطرة شعرية اخرى يؤكدالشاعر ايمانه العميق باللـه وانه الشافي الكافي من كل الاوصـــاب والادواء ، وانه متمسك بعروة الايمان حتـى النفس الاخير واماله الحصول على مرضاة اللـه :

ايها الحمى لقد احرقتني
وذوى من وقـد نيرانك غصني

انا لم يضجر فؤادي منك بـل
لم يـؤ في رافه الرحمن ظني

فحنانيك الهي .. واهدني
من ذنوبي ، ربما لم ترض عني

ـ الم بالشاعر داء عضال فلم يجد غير اللـــه شافيا له ، فهاهـو يتوجه اليه متضرعا مستشفيا :

سألتك يا رباه في ركعاتي
شفاء لادوائي وفي سجداتي

وقبل صلاتي ارتجيك وحينما
واثر انتهائي من اداء صلاتي

وفي هجمات الليل والناس نـوم
وطرفي بكاء ، وفي يقظاتـي

.. فهلا شفاء منك يكسو شيبتي
جمالا كما كانت ، وتسعد ذاتي

ـ وفي خلجة من خلجات الشعر النابع من القلب يروي لنا الشاعر رفض الدواء الشافي اذا كان فيـه معصية الخالق ، معولا عليه في كل امر وفي كل شفاء ، كيف لا وهو فاطر كل شيء ، في مقطوعة بعنوان ـ زعم الطبيب ـ :

زعم الطبيب بأن بالصهباء
تشتد اعصابي ويحسم دائي

فرفضتها ، وانا المريض ، ولم اكن
لاريد بالخمر الحرام دوائي

آمنت ان اللـه لم يجعل لنا
فيما نهانا عنه اي شفاء

آمنت ان اللـه سوف يقيمني
من علتي فيه عقدت رجائي

وبحرمة اللـه التي عظمتها
تشتـد اعصابي ويبرأ دائـي

ـ وفي قصيدة ترتفع في بوحها الى مصاف الشعر الصوفي ، يحدثنا الشاعر عن سأمه من العيش والدنيا والناس ، فيثوب الى خالقه فعنده المحجة والخلاص :

مللتك يادنيا ، وان لم ازل فتى
على مثله الدنيا تعز وتكرم

.. سأصبر نفسي دون ريب بباقي
واسترحـي بالاذى لا اكلم

فلله لا اهلي ولاذي صداقتي
شكاتي ، ففي اللـه اتعشم

ـ وفي نهاية هذا القسم من الديوان يتوجه الشاعر بنفثة شعرية من القلب بعنوان ـ بكاء ودعاء ـ الى العلي القدير ان يلهم قومه السداد والرشاد وان يبدل حالهم من عسر الى يسر ، ومن حطة الى عزة فيقول :

رب ان كنت قد كتبت على
القوم خمولا وفرقة وصغارا

فابدل الهون مكرمات وصير
فاقة العلم ـ في البلاد ـ يسارا

رب وارفع رؤوسهم عاليات
وضع الاصر عنهمو والشنارا

رب واجعل منهم رجال نضال
ـ لا ضلال ـ .. اعزة احرارا

جـ ـ القسم الثالث من الديوان وهو بعنوان ـ اشتات ـ مجموعة من القصائد اختيرت مما قاله الشاعر في مختلف الفنون الشعرية التقليدية والمستحدثة .

ـ ففي التأمل نراه يستبطن ذاته ويفتكر في كر القدو والاصال والحظ العاثر والحبيب الغادر والصديق الهاجر والقريب النافر :

عندما اخلو لنفسي لارى
بلحاظ الفكـر ـ ما قد غبرا

فيكر الامس نحوي راسما
مـن امامـي ووراءي صورا

شد ماآسي على دهر عصى
ومنـى خابت وحظ عثـرا

(وحبيب) ما رعى العهد ـ ولا
قدر الود .. ولكن هجرا

(وصديق) ما حماني مشهـدا
لا ولا غيبا .. ولكن خترا

(وحياء) سامني فوت الجنى
من حبيب طائـع ما نفرا

(وقريب) اشبع القربى اذى
وسقاها ما سقاها كدرا

(وبعيد) حمد الفضل بنا
ورعى الود لنا واعتبرا

(وحسود) قد درى مقدرتي
في ابتداع الفكر لكن كفرا

ـ والشاعر يعجب من تصريف امور الحياة فهي ترفع ناسا وتذل ناسا وتغني هذا وتفقر ذاك ، وتوزع الحظوظ على غير هدى :

عجاب هي الارزاق ساعة تقسم
فهذا اخو مال وذلك معدم

.. ويدرك مجدا خامل بيد انه
مشفعة فيه قريب معظم

ويخفق في عقبى مساعيه عامل
صبور على البأساء ما يتألم

.. وهذا شباب عاقل غير طائش
يخاف ويرجو الله لا يتأثم

وذاك مشيب طائش غير عاقل
يحب ويغوي من يحب ويجرم

.. ولله فيما استنه في عباده
مجاهيل اسرار على النقد تحرم

ـ وفي تكريم اهل الفكر ينشر الشاعر القصيدة التالية تحية للكاتب الكبير الاستاذ العقاد حين زيارته للحجاز عام ١٩٦٥ هـ :

آمنت غير منافق ومكاذب
آمنت بالعقاد ابلغ كاتب

يزهو بك الشرق الحديث بنهيه
نقاده لخواطىء وصوائب

اسلوبك السلسال اسحر اخذة
نحو الرشاد لخائر ولرائب

ـ وفي الرثاء يقول قصيدة طويلة في رثاء الشيخ محمد امين فوده نجتزىء منها الابيات التالية :

.. ولكن بي من فجاة النعي كاظما
احال قصيدي قاحل الفيض اسفعا

فقل لي وللقوم الحزاني : عزاءكم
على ان ربع الفضل قد بات بلقعا

ومن اسف ان الخليين من نهى
وجدوى .. مكوث في المتارف رتعا

ـ وفي ذكرى ابي العلاء المعري يقول معرفا به مبينا لفضله :

تكلم صيت العرب اوما تكلما
سواء ، فما تنفك في العرب معلما

(ذكاء) مديد السبح في كل وجهة
(وحافظة) تؤوي فصيحا واعجما

(وفهم) بليل الريب مسترسل السرى
و (عجز) ابي الا الغيب سلما

ـ وبين الجد والفكاهة ينظم الشاعر قصيدة يتحدث فيها عن حرارة الصيف الخانقة التي تلف المملكة العربية السعودية فتشوي الجلود وتذيب الاذهان وباسلوب فكه يتحدث عن ذلك بقصيدة عنوانها ـ ذنوب الحر ـ :

كيف لي بالقصيد يوحي لذهني
وهو في الحر ذائب مشبوب ؟

نسمات تهب حرى فياويل
بلادي بها . وبئس الهبوب !

وسماء وبداء مثقلـــة الحمـــ
ـــل ، عقيم الجنا . . ومغنى جديب

ونجوم غبراء تتبـع بـدرا
حل فيه التثريب لا التشـيب

ـ وفي موضوع الاخلاق يتحدث الشاعر في قصيدة عنوانها ـ افك مدفوع ـ عن سلوكه الجدي في الحياة وركضه المتواصل وراء الجد والتحصيل ، دافعا عن نفسه كل ما يدعو الى الشبهة ، مبتعدا عن اللهـــو والهوى والمجون :

ستضحك عيابا علي حصاتي
وترجم اعالي بخبل والامي

فانت غريب اللب الا عن الهوى
هوى العيش تبغيه لذاذة انام

لباس هي الدنيا لجان ومحسن
سيجزيهما العدل احكم علام

ـ ومن باب المساجلات الشعرية التي تحـــدث احيانا بين الشعراء جرت امثالها مع لشاعر وصحبه الشاعر حسين سرحان والشاعر حســـين عـرب ، بقصائد على طريقة النقائض بين فرسان حلبته الشعر في العصر الاموي . ومما قاله الشاعر هنا :

دعا حر الزمان ولا تنـــــالا
بحر كما العلاة والعقـــالا

عقـال لراس مامون ولكـــان
عقـال النفس اجدر ان يـزالا

وما ادنى العقال لضرب عاد
يبادلك السباب او النضـــالا

وما احراه حين يراك عـــــز
من الاجنـــاد ، ان يقف امتثالا

ـ ومن معارضاته للشعراء نذكر هذه المعارضة بعنوان ـ كبرياء ـ وقد عارض بها الشاعر المرحـــوم حمزه شحاته . والشاعر حسين عرب في قصيدتـــي لهما نفس البحر والروي سنة ١٣٥٩ هـ :

همس الهوى . لم يكن من قبل يهجس بي
ولا سمادير حـــن حاكها الشغف

ولا الحنين الى ذي رونق حســـن
في وجهه الصبح يكسو خصره الهيف

او كان كالزهر اذ يفتر مبســمه
وخده الورد من توريده يجـف

او كان في ناظريه البيض مرهفة
في ومضها الفتك بالنظار والخســف

او كان اما خطافا لغيد مخجلة
من خطوة ، وغصون البان ترتجف

ـ وفي مجال الحكمة يلخص الشاعر تجربته فـي الحياة بابيات يطلقها فتصير مسار الحكمةعبر العصور فما هو يميز بين الطيب والخبيث من الاصدقاء فيقول مكانك ! من هذا الذي عنه تبحث
ومن عجب ، تعنى به وهو يعبث
اترجو ودادا من فتى غير صالح
تطيب عفافا في الهوى وهو يخبث
خليع رقيع . . مائن غير آمـن
على موثق يعطي ولا مايحدث
وما هو في حـــن فريد لذاته
فحبك لو فكرت ما كان يحدث

ـ وفي باب الاخوانيات وقد اكثر الشاعر فيـــ واجاد نقتطف هذه الابيات بعنوان ـ الصديق الاول ـ
قـــما ما استطبت بعدك عيشا
ياصديقا قد طاب بعدا وقربا
ذكرياتي وذكرياتك ذخـري
من هنا الشباب قبلا وغبا

ـ وفي مجال الهواجس التي تعتور النفس وتحفها باسفين من الوجع والقلق حيث تصطرع القيـ يقول الشاعر :

اقول لنفس حين كذبت ظنها

رشادك هذا الحب ايمانه كفر
على الرحب من يدنو رجاء مودة

لدنيا ، ومن يأبى مودتنا حـر

ـ وفي باب النصح والوعظ والارشاد يتوجـه الشاعر بهذه الابيات لاحد الاصدقاء المقيم شطر مصر طلبا للعلم ناصحا مرشدا فيقول :

ايها الظاعن العزيز الى مصر
تذكـر مـرادك المأمـولا

ان في مصر للمعارف نيـلا
مستفيضا ، وللمتـارف نيـلا

فذر اللهو للغواة وصـدق
امـلا للبلاد فيـك جميـلا

ـ وفي الامثال ، يتيسر للشاعر صياغة مثـل متداول معروف من الامثال القديمة ، على الصورة التالية مبينا قيمة شعره :

شعرت فعاب البلة شعري ومادروا
نفاسـة ما يشـدو به مني الفـم

وهل تعدم الحسناء في الناس زاريا
على حسنها . . كـلا فما هي تعـدم

ـ وفي هذا القسم من الديوان فنون شعريـة كثيرة يصعب حصرها وابداء الشواهد عليها في هـذه المجالة من الدراسة مستحيل فالشاعر خصب الشاعرية فياض الخاطر ، ما ترك بابا من ابواب القول الا وافتن فيه .

د ـ ثم يأتي القسم الاخير من الديوان بعنوان ـ اشعار من الغرب ـ اعجب الشاعر بها فنقلها عن عن الانكليزية بتصرف كبير في الاسلوب والاداء ، صب فيها خلاصة تجربته الفنية في النظم وعصارة تجاربه في الحياة وارسلها كالحكمة تعبر عن نظرته للحيـاة ، وقد ثبت اصولها بلغاتها الام في نفس الديوان .

ـ فعن بايدون نقل هذه الفكرة بعنوان ـ الجمال الخالد ـ :

يزايل ما نهذي به من تحرر

وما نبتني ـ وهما ـ من المجد والفن
على حين تستبقى الطبيعة حسنها
ومتعتها الجرداء من خدعة المين

ـ وعن هازلت يورد الهمسة التالية بعنـوان ـ الانسان ـ :

اراني ضحوكا فينة ، ثم ناحبا
الا ليت عقلي لا يجلي الحقائقا
اشقى بعرفاني الفوارق ، ليتني
اذن كنت ممن يجهلون الفوارقا

ـ وعن شكسبير يصوغ هذه الابيات بعنـوان ـ حكـم ـ :

معاليك وعها الى غير ملتقى
اذا بت يرعى في حماك ويستقى
احب الورى كلا ، وثق في اقلهم
ولا تتخذ ايا لظلمك مرتقى
واي نسيب ، كاذب الفضل ما خلا
اذا كان سماح العواطف مشفقا
وليس فقيرا ضائق الثوب مثلما
يظل عديم الصبر : افقر ، اضيقا

ـ ومن جميل نظمه وصوغه ما يأخذه عن هوفر حيث يقول :

ومن عجب التاريخ : كل مملك
على الناس ، قد اعلته حرية القول

فثار على الاسلاف يشكو اعتسافهم
وثور في الاخلاف شكواه بالمثل

فلما رقى الكرسي انكر امسه
ولم يرتض حرية القول والفعل

ـ وهكذا ينتهي ديوان ـ وداعا ايها الشعر ـ وفي الفكر قبس يضيء ، وفي اعماق النفس منـه ذوب يضوع . والشاعر في كل ذلك عميق الفكرة ، صادق العاطفة ، سامي الهدف . متمسك بعمود الشعر حافظ للقيم الدينية والاخلاقية والادبية ، تشتم فيه رائحة الماضي العريق ، وتتلمس طريقة الفحول في الصياغة .

دمشق ـ علي المصري

اسماعيل مظهر ومنهجه في النقد

الدكتور جليل كمال الدين

اشتهر اسماعيل مظهر بالبحث العلمي الدائب في الحقل الادبي والفكري والاجتماعي وحتى السياسي. ان اسماعيل مظهر من كتاب الطليعة في عصره . كان يقف في الطرف الاقصى من حلبة النقد والبحث لا يجامل ، ولا يداجي ، ولا يحابي . همه ان يقول رايه ، وهمه ان يقول الحقيقة كما يراها ، دون خوف او خشية لومة لائم .

ومما يبر الحديث عن اسماعيل مظهر ، ناقدا، كتابه الذي اصدرته دار مكتبة الحياة تحت عنوان ـ في النقد الادبي ـ . وهذا الكتاب هو مجموعة امينة لمقالات اسماعيل مظهر في النقد الادبي . فهو اذن يعرض ، في الجوهر ، وجهة نظر اسماعيل مظهر في النقد الادبي ، او ما نسميه نحن ـ بالمنهج النقدي ـ له .

يبين المنهج النقدي لاسماعيل مظهر في خطله مطالعاته النقدية عن العقاد ، وطه حسين ، ومصطفى الشهابي ، محمد حسين هيكل، وعلي مصطفى مشرفه، وابي خلدون ـ ساطع الحصري ـ ، ومحمد رشيد رضا ، وسلامة موسى ، وحافظ محمود ، وكذلك في خطله مناقشاته لكتاب اجانب مثل بيرون سميث ، وفرانك كرين ، ورومان رولان ، والسير اوليفر لودج وغيرهم .

ونستطيع ان نقول ، بثقة ، ان اصول المنهج النقدي لاسماعيل مظهر ، تتلخص في الموضوعية ، والروح العلمية ، والمادية . وتتفرع عن هذه الاصول جملة فروع هامة هي ايمانه بالواقعية اسلوبا للتعبير الفني ، والانسانية في النزوع المحلي العالمي ، ورفض الرومانتيكية والميتافيزيكية واللبرالية .

ففي مناقشاته الحادة للعقاد يتضح جانب من هذه الاصول النقدية. فهو ينتصر للانسان، وينتصر للعقل والارادة الانسانية ، ويرفض الميتافيزيكية واللبرالية اللتين كانتا تؤطران لبعض كتابات العقاد النقدية . ولا عجب في ذلك ، فالعقاد هو زعيم مدرسة «الديوان» الرومانتيكية في مطلع القرن العشرين في مصر . وهو فيلسوفها وكبير نقادها ، وقد انتهت به الرومانتيكية الى اللبرالية من جهة ، والايمان بالميتافزيزيكية من جهة اخرى ، بالرغم من التناقض الظاهري بين هذين القطبين ، والحال انهما وجهان لمدالية واحدة ، هي مدالية الرومانتيكية .

وفي هذه المناقشات ايضا يتضح ايمان اسماعيل مظهر بالمادية الديالكتيكية كفلسفة ، وهو يذود عنها سهام العقاد الطائشة ، ويصحح له تهويماته ، تحنطاته في هذا المنطلق في مقالته المشهورة – بين التصحيح والتوضيح – . ومظهر قريب الى الصواب، حين يقول: ويقصد بالجدلية التعبير عن تواصل الاشياء تواصلا حركيا وشمولية التغير بما تتصف به هذه الشمولية . ويخلص مظهر من ذلك الى رفض جميع الماورائيات – ما وراء الطبيعة – وهي الميتافيزيكية ، في الجوهر ، لانها مستمدة من الوجودية المثالية .

ويرى مظهر ان الروح العلمية والمادية اسمان لمسمى واحد ، وهما لا يناقضان الخير ، بل هما يفوقان الروح الميتافيزيكية الدينية ، التي يؤكد مظهر ان العقاد يزعم انها احد الجناحين اللذين لا يطير العالم الا بهما.

ان هذه التصحيحات المادية التي يقوم بها مظهر لفكر العقاد اللبرالي تقوده الى مواجهة حادة مع الدكتور طه حسين ، المعجب في اطوار ثقافته الاولى باللبرالية الغربية ، والفرنسية خصوصا ، حتى انه ليؤثر نقل الاسماء العربية للمواقع العربية بنطقها الغربي ، وذلك عندما اسمى موقع – مرج راهط – الشهير في التاريخ العربي بـ – مرج رات – الذي يداب المستشرقون ، ولهم عذرهم ، على ترديده .

وتستمر هذه المواجهة ، حينما يصطدم مظهر بابراهيم المازني ، زميل العقاد في مدرسة – الديوان – الرومانتيكية ، والروائي القصاص الشاعر العربسي المعروف . فهو يشخص احد مظاهر الضعف لدى بعض اجنحة الرومانتيكية العربية ، وكل رومانتيكية ، وهذا المظهر هو الاهتمام بالصياغة والشكل على حساب المضمون ، او على حساب الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون . ويلحظ مظهر بعين الناقد الواقعي الموضوعية ان المازني يكتب دون وعي ، وانه اديب من الطابع الذي لا يعني بالفكرة بقدر ما يعني بالصياغة وانه يتخبط في افكار غير منتظمة او غير متناسقة ، كما يلحظ اهتمام الرومانتيكيين ، ممثلين فيه ، بالفولكلور، وهو اهتمام محمود ولكنه يتحول على ايدي بعض الرومانتيكيين ، مثل المازني الى الميل الى غليظ القول على حد ما يقول مظهر .

بيد ان اسماعيل مظهر لا يحابي ، كما قلنا ، حتى لو كان حديثه النقدي يدور عن صديق حميم او رفيق في الجبهة الفكرية . ففكره انتقادي ابدا . فهو حينما يتحدث عن الرجل سلامة يخصه بالتقدير دون ان يجره ذلك الى المداجاة او الصمت عن اخطائه . فقد قال مظهر ، يوم كان صاحب مجلة العصور ، في مقاله المعنون ـ مع سلامة موسى حول الاسلوب العلمي ـ : جرت ـ العصور ـ على طريقة من النقد لم تعرض الكثيرين من الكتاب والاساتذة على الاخص . وما يعنينا من شيء رضوا ام غضبوا ، ما دمنا نرضي ضميرنا ، ونقول ما نعتقد ، ولا فرق بين صديق وغير صديق . وتناولت ـ العصور ـ ، فيما تناولت ، بالنقد بعض اشياء نشرها سلامة موسى الذي لا يمكن بحال ان نحاول ان نغمطه حقه او ننكر جهوده في سبيل العلم والادب . غير ان هذا لا يصرفنا مطلقا عن ان ننقده ، ونقول بان اسلوبه عامي ، والحقيقة انه عامي الاسلوب ، لا تجرى ديباجيته على ما تتطلب الاساليب العربية المنتقاة . . .

ويتجلى منهج اسماعيل مظهر النقدي الواقعي ، في اجلى صورة ، حين يتصدى لنقد بعض الكتاب الغربيين . فاسماعيل مظهر يدين التوفيقيين التقاليد السلفية وبين الروح العلمية الحديثة . ففي مقالته التي يناقش فيها السير اوليفر لودج ، وهو عالم فيزيائي كبير ، يشجب نزعة هذا العالم ، التي تفتقد تبريرها الموضوعي ، لمحاولة العثور على اساس علمي مادي لنظرية تناسخ الارواح ، ولنظرية حلول الروح في الجسم البشري ، عندما يبلغ مرحلة معينة من التطور . وينهال مظهر بسياط التقريع في مناقشته الهادفة لهذا العالم ، فيقول ، فيما يقول : واني لاعجب كيف ان سير لودج يستطيع التدليل علميا على ان الروح سكنت الجسم الحيواني بعد ان بلغ مدرجا خاصة من النشوء بل كيف يستطيع ان يوفق بين الاسلوب العلمي وبين هذه الاقوال الغريبة التي يرسلها ارسالا في جمل خطابية وابيات من الشعر فيها من جمال الاسلوب وحسن السبك بقدر ما فيها من البعد عن العلم الذي يمثله السير لودج في ناحية اخرى من نواحي نبوغه المتضارب الصور ، الكثير الالوان .

هذه هي بعض اصول المنهج النقدي لاسماعيل مظهر عرضنا لها ، ودللنا على بعضها بالامثلة دون ان ننسى ان اسماعيل كان يمثل طليعة الفكر النقدي الواقعي ، عشرينات وثلاثينات القرن في مصر ، ودون ان ننسى ان فكره النقدي كان مشوبا ، هو الاخر ، بتطرفات وتناقضات لا بد منها ، فيما يبدو ، في المحاولات الاولى ، وفي خطوات الريادة في دروب غير مطروقة .

ولعل اكبر اخطائه هي مبالغته في النزعة العلمية ، لدرجة انه وقع في فخ المثالية الذاتية ، والوضعية المنطقية ، دون ان يريد هو ، طبعا ، ذلك ، ويبقى لمظهر فضل الذود عن النقد الادبي الواقعي ، ومأثرة نشر الايديولوجية العلمية في ظروف صعبة ، بالغة الدقة .

● عن البيان الكويتية ●

الملف

احسان العظم

الوقائع الكاملة للحفل التأبيني الذي اقامه المركز الثقافي العربي في حماه
احياء لذكرى فقيد العلم والثقافة المرحوم احسان العظم

احسان العظم
قصة حياة

وليد قنباز

في ذروة العاصفة السياسية والاجتماعية التي اجتاحت العالم بعامة والوطن العربي بخاصة ، وفي حي البارودية من مدينة ابي الفداء وفي شهر تشرين الاول من عام – ١٩١٣ – ولد محمد احسان بن محمد بن اسعد العظم في بيت عبق بالعلم والثقافة والمعرفة ..

فالجد – اسعد العظم – شاعر وصاحب مجالس ادبية مشهورة ومعروفة معادباء جيله ولا سيما الشاعر الكبير محمد الهلالي ، ولقد خلف لنا ديوان شعر ضم بين دفتيه صورة عن الادب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بكل جزئياتها ودقائقها .. والاب – محمد العظم – اديب ومؤرخ وصاحب نكتة ودعابة . وكان يملأ المجلس الذي يحتويه علما واديا . فما من كلمة ترد الا ويورد عليها شاهدا او حادثة طريفة او نادرة ... وكم كان يميل الى التحقيق التاريخي ، فما من كتاب يقع بين يديه الا ويضع عليه شروحا وتعليقات . ويشير الى المصادر ويرجح بعضها وينقض بعضها الاخر . وكان الى هذا يتعقب نقاطا معينة ويشبعها بحثا ودراسة وتحقيقا حتى يصل الى راي يطمئن اليه عقلا وعلما .. وزاد على هذا بانه قرض الشعر بفنونه المختلفة على طريقة ابيه ..

ومن الجد الاديب الشاعر ، والاب الاديب المؤرخ كان لاحسان مورد ومنهل بقي يعتز ويشيد بهما في كل مجال ... فكم روى لنا ابياتا من ديوان جده ، وكم ذكر تلك الاماسي التي كان يعقدها والده مع اهل بيته، وفيها يلقي عليهم ما تعيه ذاكرته من حوادث التاريخ

والادب ، وكيف كان يناقش الاولاد جميعا في بعض المشكلات التاريخية التي يمر بها مظهرا صحة بعضها وزيف بعضها الاخر ، ولعل المرحوم احسانا واخاه مفيدا كانا من ابرز الابناء حبا لهذه المناقشات واكثرهم ولوعا بالبحث والاستفسار والحفظ .. وكم كان يرغب اليهما في حفظ جيد الشعر وبليغه ليستمتع بسماعه يلقى بلهجة تمثيلية تفشى المعاني والافكار والعاطفة ، وكانت سنية البحتري صاحبة المقام الاول في هذا المجال ..

في هذا الجو الزاخر بالادب والتاريخ والثقافة العامة مرت سنوات احسان الاولى والتي تحدد ـ كما يقول علماء النفس ـ سمات شخصية الانسان من بعد ... ولقد ارسل مع اخوته الى الكتاب حيث شاد طرفا من القرآن الكريم وشيئا من الكتابة والحساب .. وحين تعدى السابعة من عمره دخل مدرسة ـ التطبيقات ـ وكانت في موقع مدرستي ضرار بن الازور والفضيلة ويقوم المربي الكبير المرحوم محمد سليمان البارد على ادارتها ، ولعل من ابرز المعلمين الذين اثروا في احسان الاستاذين ـ صادق علوش وخالد المنجد ... الاول بما كان يجود به من روائع في دنيا الادب العربي واساليب اللغة العربية ، والثاني في آفاق التاريخ واجوائه اذ كان يقدم درسه بدراية وحفظ عجيبين .. ويذكر زميلا احسان في عهد الدراسة الابتدائية ـ عبد الرحمن عياش وعبد الجواد العمر ـ ان احسانا كان انيقا بالغ التهذيب ، ويتميز بفرط حساسيته حتى انه كان يبكي لدى سماعه كلمة نابية او تأنيبا وكم كان زملاؤه يحاولون تقليده فلا يستطيعون الى ذلك سبيلا .. ثم انه اشتهر وهو في نهاية المرحلة الابتدائية بالقائه الشعر بشكل خطابي وتمثيلي ، وكان يفخر بانه المختار في الحفلات والمناسبات لالقاء الشعر وتلاوة الكلمات فهو ـ على حد تعبير معلميه ـ يعطي للكلمة اهتزازها وابعادها ...

وتقوم الثورة السورية الكبرى واحسان على عتبة الشهادة الابتدائية ، ويشهد وهو ابن اثني عشر عاما اندفاع الثائرين ووحشية المستعمرين ، وقد كان لابيه دور مشرف في هذه الثورة اثر على مركزه الوظيفي ومورد رزقه الوحيد من بعد ...

وفي عام ـ ١٩٢٦ ـ حصل احسان على الشهادة الابتدائية ، ودخل المرحلة الثانوية في تجهيز حماه ، وكانت في شارع ابي الفداء امام مقر الاتحاد النسائي الان ، وبدت حياته في تلك الفترة امتدادا للمرحلة الابتدائية ، ولكن بأفق اوسع وارحب . ومن الجدير بالذكر انه لم يكن مبرزا في المواد جميعها ، ولكنه اثبت تفوقا ملحوظا في مادتي التاريخ والادب العربي .. حتى ان درجاته فيها كانت تامة في اغلب الاحايين ، وكان يدرس مادة التاريخ آنذاك المرحوم ـ نظمي الريس ـ الذي يتمتع بذهنية وقادة وبحث عميق في احداث التاريخ وشعابه مما ترك مجالا وحبا وتعلقا اكثر في اعماق احسان واما مادة الادب والنحو والبلاغة والصرف فقد نثرها في شغافه العلامة الشيخ سعيد زهور عدي ، ومن كليهما حلق بجناحين من الزمان والبيان فغدا في حال لا توصف وانطلاق لا يحد ..

وفي عام ـ ١٩٢٩ ـ رحل احسان مع عائلته الى حمص ، فلقد اقيل والده بعد انتهاء الثورة من وظيفته

كرئيس لديوان المحافظة في حماه، وبقي مدة يسعى دون جدوى الى ان تمكن عن طريق معارفه في دمشق من استعادة مركزه وحقوقه الوظيفية بشرط الا تكون حماه هي المركز .. فاختار حمص . وهكذا دخل احسان تجهيز حمص والتي كانت في شارع حماه ثم انتقلت بعد مدة الى البغطاسية قرب ساقية الري .. ولقد عاش في هذه المدينة الشقيقة جوا اجتماعيا منطلقا ومنفتحا فتعرف الى نفر من عشاق الادب ورواده وغدا يشارك في السهرات والاجتماعات والندوات الادبية والاجتماعية ، ولم اسمه كاديب متمكن من التاريخ وهو ما يزال طالبا ، وكان للمرحوم قدري العمر من الناحية الادبية وللمرحوم وجيه الاتاسي من الناحية التاريخية ـ في تجهيز حمص ـ دور كبير في وضع اللمسات الاخيرة في اتجاه احسان العظم وتكوينه الفكري والادبي والثقافي .

ويجدر بي ان اذكر انه خلال العطل والاعياد كان يهرع الى حماه ليلتقي باصدقائه الادباء وفي مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن الخليل ليجلس اليهم في المقاهي او في بيت احدهم ويشاركهم في التهام اسفار العلم والادب والتاريخ قراءة واستيعابا ومناقشة ونقدا ، ومن ابرز ملاحظات زملائه عليه انه كان دقيق الفهم لاسرار التاريخ ، واسع الاطلاع على اراء المؤرخين ، سديد البحث في تلك الاراء ، اصولي النزعة في الموازنة والترجيح بينها ، ثم له بعد رايه الخاص. فتراه يوافق مايوافق عن دليل، ويخالف مايخالف الى صواب لانه مستكمل للادوات المؤهلة لذلك .. ولقد كان له في هذه الفترة اسهام مع اصدقائه في تحويل قصة ـ ابن سراج ـ للكاتب الفرنسي ـ شاتوبريان ـ الى مسرحية ، ثم اسهم معهم في اقامة اول مهرجان ذكرى للمتنبي وذلك في عام ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م ، بمناسبة مرور الف عام على مقتله ، وكان اول مهرجان يقام للمتنبي في العالم العربي ، ولقد القى احسان خلاله بحثا عن شعر المتنبي وعلاقته بتاريخ الصراع بين العرب والروم .

وعلى هذا المنوال سارت ايامه ، فكان مآلها الاخفاق في نيل الشهادة الثانوية رغم تفوقه في مادتي الادب والتاريخ ، فالشهادة ليست ادبا وتاريخا فقط . وكان رد الفعل عنده هو الرحيل عن سورية لمتابعة الدراسة بعيدا ، ولم تتم الموافقة من قبل الاب لان امكاناته المادية كانت ضحلة .. ولكن احسانا اقنعه بانه سيكتفي باقل من القليل وبانه سيحاول ايجاد عمل لسد حاجته .. ونجح في مسعاه ، وابحر الى فرنسا عام ـ ١٩٣٦ ـ بعد انتقال عائلته الى حماه بشهور . واستقر في مدينة « تولوز » واختار الحقوق لدراسته بعد ان قدم امتحانا للقبول في جامعتها بحسب انظمة الجامعات في ذلك الزمان ، فاجتازه بنجاح ، وبقي هناك ثلاث سنوات تمكن خلالها من التعرف الى ابرز مدن فرنسا وجامعاتها ومواقعها التاريخية الهامة ، واخيرا حاز على شهادة الاجازة في الحقوق مع تمكن جيد من اللغة الفرنسية وادابها . .

وعاد احسان الى حماه عام ـ ١٩٤٠ ـ ليجد والده قد توفي خلال غيبته المتواصلة وكان اخوه مفيد حينذاك احد اعضاء اللجنة الادارية المساعدة للاستاذ المرحوم ـ قدري العمر ـ في ادارة تجهيز حماه والتي كانت في بناء ثانوية السيدة عائشة حاليا ، وكان قدري يسعى باحثا عن مدرس لمادة التاريخ ، فعرض عليه مفيد ان يكون احسان ، تلميذه ، وعاشق التاريخ والادب هو المدرس ، فلقي الرضا والقبول .. وهكذا دخل احسان سلك التعليم ودرس مادة التاريخ مدة عامين دراسيين للصفين العاشر والحادي عشر الثانويين ، لقد اظهر خلالهما قوة وتفوقا بحيث اعطى للتاريخ وتدريسه لونا محببا وبعدا جديدا ، فقد كان درسه قائما على طرح مشكلة تاريخية يعقبها مناقشة وتحقيق وكم كان يظهر اخطاء كثير من المسلمات التي كان الناس يعتقدون بصحتها ، وذلك عن طريق الحجة والمنطق والمصادر، ويرى ان الطبري هو سيد المؤرخين وابن خليكان هو سيد المترجمين .

وفي عام ـ ١٩٤٢ ـ ترك مهنة التدريس لقلة موردها المادي ، وطفق يشتغل في مهنة المحاماة علها تعطيه مدخولا اكبر يصلح من حاله وحال من يلوذ به ، فافتتح مع الاستاذين اكرم الحوراني وسعيد الخاني

مكتبا مشتركا للمحاماة في بيت يقع تحت تل الدباغة وهو محاذ لجامع المدفن من جهة الغرب ، فقد كان صديقا لسعيد بعد ان تعرف اليه في فرنسا . وكان سعيد شريكا لاكرم .. وبهذا التأم الشمل ، ودامت هذه الفترة ثلاثة اعوام ونيفا ، ولكن واردها المادي لم يكن كما يجب ، واحسان لم يخلق لحل مشاكل الناس ولذا تركها غير آسف ، واشتغل لمدة شهور في ادارة الحبوب ـ المير ـ وخلالها قامت الثورة على الفرنسيين في ايار من عام ـ ١٩٤٥ ـ ، وعقب انتهائها راى ان الوظيفة بمرتبها الشهري الدائم والثابت هو مورد الرزق المقبول ، وكان عام ـ ١٩٤٦ ـ الذي شهد احسانا امينا لسر بلدية حماه خلفا للمرحوم محمود جمال الدين ، وبذا بدات فترة الاستقرار في حياته والتي امتدت سبعة وعشرين عاما تمكن خلالها من تحقيق مرامي هوايته في القراءة والافادة والبحث والدراسة والتقصي والتحقيق .. واضيف الى هذا انه استطاع بعد ست سنوات توفير بعض متطلبات الزواج ، وتزوج قرية انجبت له ثلاثة ذكور وبنتا واحدة ...

ويمكن ان نرصد له خلال هذه الفترةاعمالا خالدة في دنيا الادب والفكر ، فقد سعى جهده لاقتطاع هذه الارض التي نحيي ذكراه عليها وعمل على بناء دار الكتب الوطنية وتأسيسها عام ـ ١٩٤٩ ـ واشرف بنفسه على تجهيزها ورفدها بالكتب حتى استوت صرحا ممردا ينطق كل حجر فيه بعد ان صار الى مركز ثقافي بجميل احسان ... وايادي احسان ، وهو الى هذا من الاوائل الذين اقتطعوا قطعا كثيرة من الاراضي للمدارس في جوف الاحياء لا الاطراف وذلك عند توزيع الاراضي الاجباري ، ويذكر زملاؤه في البلدية حماسته لكل ارض مناسبة لدور العلم والتعليم .. وهو الذي كانت له اليد الطولى في حفل تكريم مفتي حماه السابق المرحوم الشيخ سعيد النعمان ، وفي ابقاء المنزل ـ الهدية ـ باسم المفتي لا باسم دائرة الافتاء لان المكرم ـ في رايه ـ هو المفتي ، والبيت يجب ان يكون له .. وهذه الاعمال لها صلة بعمله كامين سر للبلدية ، على ان هناك اعمالا لا تخضع لحصر اسهم فيها في سبيل اعلاء شان الفكر والثقافة واغنائهما ، فقد كتب المحاضرات القيمة ، ونشر الدراسات المستفيضة ، وشارك في الندوات الادبية والفكرية ، وكان مهرجان ابي الفداء ذروة عطاءاته اذ قدم بحثه الرائع ـ حماه في عصر ابي الفداء ـ والقاه على منبر المدرج الكبير في جامعة دمشق امام نفر من كبار العلماء والباحثين والادباء ، ولقد سمعت بنفسي عبارات الاطراء والثناء التي تهافتت عليه بعد فراغه من الالقاء ..

ولم يكتف خلال هذه الفترة بما وعت ذاكرته من معلومات واحداث ، بل كانت جلسات القراءة والبحث والدراسة مستمرة .. في المقاهي ... في البيوت .. وبخاصة بعد ان انضم اليها وافدون جدد من امثال ـ سهيل عثمان والدكتور عادل زكار ولؤي عاشق .. وغيرهم ، مما جعل ثقافته العامة نادرة المثال ، وغدا يمثل الموسوعية والرواية الواسعة باشمل معانيهما .

وفي نهاية عام ـ ١٩٦٤ ـ اصيب بنوبة قلبية حادة اثر ـ جلطة ـ طرحته الفراش وكان وقتها يقرا في بيته مع نخبة من اصدقائه .. وما ان استعاد قلبه اتزانه وشرايينه هدوءها حتى عاد الى سابق عهده في كل شيء .. فكانت الجلطة الثانية في ربيع عام ـ١٩٦٥ـ خلال اشتراكه في تشييع جنازة احد موظفي البلدية ، ولقد نبهه الاطباء الى خطورة حاله ونصحوه بالبعد عن الارهاق وشرب القهوة والتدخين ... فنفذ هذه النصائح اثر وقوعه فريسة المرض ، وسرعان ما عاد الى اسبعد مرور فترة النقاهة ، فاذا علب الدخان يرفد بعضها بعضا ، وفناجين القهوة تترامى على مراشفه واذا هو يقوم برحلات سياحية داخل القطر وخارجه ، واذا هو يعد العدة لكتابة الابحاث والدراسات ، ومن ابرزها كما قال لي اكثر من مرة كتابة تاريخ حماه قبل الفتح الاسلامي وبعد الثورة السورية الكبرى ، وآية ذلك ان مؤرخنا الكبير قدري الكيلاني قد بدا تاريخه الضخم عن حماه مع الفتح الاسلامي وانهاه بنهاية عام ـ ١٩٢٥ ـ ، فكان احسان رحمه الله يرى ان عمله سيجعل التاريخين متكاملين.

وارى لزاما علي ان اسجل بانه في عمله الوظيفي لم يكن متميزا ، فهو يرى الوظيفة مصدر رزق ، ويعمل ما يمليه عليه ضميره ووجدانه ، ولقد ذكر لي خالد الاسود رئيس ديوان البلدية وكثير من موظفيها بانه كان عفا خلوقا ، لم يطلب طوال مدة خدمته مطلبا شخصيا حتى انه رفض تبديل اثاث مكتبه رفضا قاطعا ، وانه كان بالغ التهذيب مع الجميع ، حريصا على مشاعرهم ، وكانه بهذا يحرص على مشاعره ومكانته وسمعته .. واما المراجعون ـ وما اكثرهم ـ فكانوا بين من يهدف الى مصالحه الخاصة ولقاء احسان بهذا النوع عادي وروتيني ، وكم كان يثور من الالحاح ومحاولة تجاوز القانون فيهرع اصدقاؤه في البلدية يعملون ما في وسعهم لتخليصه مما هو فيه وسرعان ما يعود الى مرحه وهدوئه .. وبين من يعشق الادب ويعمل في دنيا الفكر ولقاء احسان بهذا النوع رائع وشائق ، فاذا غرفته ندوة تطوف في عوالم متعددة واذا الاحاديث علوية سامية ، ومن ابرز فرسان هذه الجلسات : هاشم الصيادي وشوقي الكيلاني وعمر يحيى وقدري الكيلاني وعبد الرحمن الخليل واضرابهم .... ولم يقف عند هذا الحد بل انه كان يتحدث في الادب والتاريخ مع من يرى لديه ميلا ولو بسيطا الى الثقافة والفكر .. فبينما يدور الحديث حول الجدار والتجاوز والطريق والرخصة اذا بابن الرومي والمعري وابن خلدون والطبري يحلون محل ذلك كله ...

واستمر احسان ينوء ويفدق غير آبه لصحته المتدهورة وحالته الخطرة، فكان ان اختار له المسؤولون في العام نفسه ، عام ـ ١٩٦٥ ـ منصب رئيس للدائرة القانونية في البلدية ، وبقي كذلك حتى مطلع عام ـ ١٩٧٣ ـ حيث أحيل على التقاعد بعد خدمة دامت سبعة وعشرين عاما .. وفي عام ـ ١٩٧٤ ـ اخذت النوبات تتوالى عليه باستمرار وبخاصة بعد ان انضم مرض الربو الى اثار الجلطة القلبية ، فكان تضخم القلب او ما يسمى طبيا بمرض ـ القلاب ـ وحين تنتابه النوبة كان يعاني من ضيق التنفس حتى ليظن من يجلس امامه ان الروح ستفارقه ، فالعرق الغزير يتصبب ، والعينان تجحظان ، والتشنج يبدو في وجهه واطرافه ، وحاجته الى الهواء .. ماسة .. ماسة .

وليس هذا فقط ، بل ان الكبد عانى من ترب الداء ، وبذلك اصطلحت عليه العلل وتوافرت الادواء التي بلغت غايتها عام ـ ١٩٧٦ ـ وبخاصة بعد وفاة ـ شقيقته التوأم ، فاضطر مرغما الى هجر القهوة والتدخين نهائيا وكانا شغله الشاغل ، واخذت الادوية تتوزع جيوبه باستمرار ، ورغم هذا لم ينقطع عن المطالعة والكتابة والدراسة والرحلات ، فقد كان محبا للحياة ، متعلقا بها غاية التعلق .. وكان يكره ذكر الموت ، ويناشد اصدقاءه الا يذكروا له اخبار الموت من قريب او بعيد حتى يبقى شاعرا بالبهجة والحياة والانطلاق .

وفي هذا العام نفسه انتقل من بيت العائلة في حي البارودية بعد استملاك البلدية له وابتاع بثمنه شقة في حي الشريعة راى في جنباتها الهدوء ، وخلد الى المطالعة ، وكان له مجلس عشية الجمعة يدلف اليه فيها نفر من اصدقائه وكلهم اديب ومفكر ومتذوق ، وينقضي المجلس بين دنان العلم ومجاني الادب والفكر ...

ومع ربيع العام الحالي بدات صحته تتدهور ، وبدا الداء ينخر في جسده الواهي وطفقت الاحلام تنذره ، وراح قلبه يحدثه بقرب رحيله ، حتى انه شرع في طلب رؤية اخوته واصدقائه قبل وفاته بنحو عشرين يوما ، ثم كانت لديه كتب مستعارة من مكتبة المركز الثقافي فقام بجمعها واعادها كاملة ، وقبل الوفاة بيومين سهر عنده بعض اصدقائه المقربين فانطلق ـ على غير عادته ـ يتحدث عن الموت بانسياب ، ثم انشد بيت الشاعر حافظ ابراهيم :

آذنت شمس حياتي بمغيب

ودنى المنهل يا نفس فطيبي

ثم بكى بحرارة زائدة .. زائدة ، وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من تموز الماضي استيقظ مبتهجا ، اذ عادت له صحته وتوفرت له العافية ، فنزل الى المدينة ، وعاد الى البيت وكله مرح وهمة ونشاط ، وفي الاصيل جاءه لؤي العاشق واصطحبه معه بنزهة في سيارته وطاف به انحاءها المدينة وضواحيها ، وكان احسان يتحدث عن ذكرياته في كل مربع وصوب ، ويتطلع هنا وهناك ويحيي كل من يراه ، وكأنه في ذلك جميعه كان يلقي عليها كلها نظرة الوداع الاخيرة ... وعاد الى البيت بعيد الثامنة مساء وداعب زواره من اهله الاقربين ، ثم دخل غرفته وقرا لمدة ساعة ، واستلم اثرها للنوم بعد ان هيأ حقيبته للسفر صباح اليوم التالي الى دمشق ومنها الى عمان لاستشارة الاطباء في حالته الصحية المتدهورة، ولكن القضاء كان اسرع ، اذ استيقظ في الساعة العاشرة والنصف ليلا وغادر فراشه فسقط في ممر البيت وقد فارقته الروح مستسلمة لبارئها ...

وعلم الاهل والاصدقاء برحيله الى دنيا البقاء . فدلفوا الى بيته متسارعين والدموع تتساقط حرة وحزنا والما على من كان يملأ البيت والمجلس بهجة ومرحا وحبورا ... وعصر الثلاثاء الخامس والعشرين من تموز عام ـ ١٩٧٨ ـ شيعت حمساه بمختلف طبقاتها وهيآتها مؤرخها واديبها البحاثة احسان العظم الى مثواه الاخير بين العبرات واللهفات والدعوات ...

ذاك هو حسان العظم الالوف المألوف والذي تتقبله النفس بسهولة ويسر .. لانه بعيد عن التقبض والتكبر فقد كان شعبيا بكل ما في الكلمة من معنى ، وجليسه لا يمل من مجالسته ابدا لكثرة حبه المرح والنكتة حتى ولو اصابته وكان هدفها ، وهو الى هذا متواضع وامين لا يحب الاذى والضرر ولا المشاكسة والعداء، وكان انفعاليا سريع الغضب وسريع الرضا ايضا في الوقت نفسه ، ومهذبا لا تسمع منه كلمة نابية ، وموضع ثقة يجعلك تسلمه سرك وهواجسك دون خوف او وجل .. وكان يحب الحياة البسيطة الهادئة التي تمشي وحدها وبنفسها ، ويطرب للجيد من الشعر والرائع من النثر ، ويؤمن ايمانا لا حد له بادباء حماه المعاصرين وقدرتهم على التعبير والعطاء وكان جريئا على قولة الحق في العلميات ، ولكن الجراة منه يلطفها الوقار ، والوقار فيه تزينه الجراة فيأتي من ذلك مزاج خلقي لطيف ، متساوي الاجزاء ، ملتحم الخلايا ، قل ان تجده في كثير من الباحثين والدارسين المعدودين ، وكان فوق ذلك جميعه مؤرخا وباحثا واديبا يتميز بغزارة الاستشهاد وحضور البديهة ودقة المناقشة ، ويعتقد الاعتقاد كله ان المطالعة غذاء الموهبة وباب المعرفة ...

فيا اخي الغالي ابا انس ...

لقد كنت منا منبع الانس ، وروضة العطاء ، ودوحة الحب والادب والفكر ..

فسلاما .. ولا اقول وداعا

ابت النفس ان تراك عديما

عشت فوق الثرى عظيما .. فاحرى

بك ان تسكن السماء عظيما

والسلام عليك في الخالدين ...

حماه ـ ١٦ ـ ٩ ـ ١٩٧٨

وليد قنباز

جانب من المشاركين في حفل التابين

رثاء

منذر الشعار

صبت لـك الشمس من صهبائهـا جـاما ... ومـرغ الـورد في خديـك أنغامـا
ولـم تزل هـذه الانفـاس لاهبـة ... حتـى استحالـت علـى نجـواك انـاما
هـذي نواعيرك اللاتـي بلغـن مـدى ... يخلعـن في الدوران اليـوم والعامـا
حمـاة • يانجمـة الشـام التي برقت ... لقـد رأينـا بابـي نهـرك الشامـا
أنت الشباب وان اعـرقت فـي قـدم ... انت الحقيقـة اصـداء وأحلامـا
مالـي أراك علـى دمـع وقد ضحكت ... رياضـك الفيـح أوراقـا واكماما
ومـا لنهـرك في هـم وفـي كـدر ... وكـان يختـال في الجنـات بـاما
قـالت فقـدت عزيزا كـان يقدرنـي ... ويملأ الـدار احسانـا وانعامـا
مضيت عنـا سريعـا يا أبـا أنس ... ومـر عمـرك في الاصحـاب أيامـا
كأن علمـك لـم يهـزز قوافينـا ... ولـم يـزل نقـدك البناء اوهـاما
كـأن فنـك لـم يشـحذ صفائحنـا ... لـرد بـاغ ولـم يغلـق بنـا الهامـا
كـأن صوتـك لم يحضـر لمجلسنـا ... أبـا العـلاء وحـانا وهمامـا
ياليت شعـري وقد أصبحت في عـدم ... اللوقـار وجـود ام لقـد غـامـا
خلـت حمـاة مـن الاسـتاذ متئـدا ... يمشـي وقـد جبـت التقـوى له الذاما

كنت الفتى العربي الندب مغتبطا ... بالمتفيد وللمغرور صداما
كنت المداد لاقلام اذا كتبت ... وفوق اكثر فن القوم قواما
ان زرت أي مكان في حماة سما ... قصدا وسرب بيان فوقه حاما
وتعشق الكتب عشقا لا انتهاء له ... بها فؤادك لا بالغيد قد هاما
اذا سألتك عن علامة ندس ... نسبته لي أخوالا واعماما
وليس تسأل عن علم ولا أدب ... الا استفضت وقلت الحق اتماما

وان أتيت بسفر حرفه سمر ... سردت ما فيه اخبارا واعلاما
خزانة كنت لكن لا انفتاح لها ... الا بما يسأل الطلاب الهاما
وكنت جلدا على التحقيق مجتهدا ... وتجبه الرزء صبرا ان هو اعتاما
بكت عليك حماة العلم ناجية ... صحائفا لم تعد تتلى وأقلاما
عشرون عاما قضيناها مطارحة ... على لقاء فما دمنا ولا دامما
كنا اذا اشعل الاخلاص مجلسنا ... دسنا بثروتنا م الشعر اعداما

روض تضمخ لي عطرا وساقية ... نشوى ، وترسل في الانحاء اكراما
وما أردنا مع الآداب كاسية ... وما حفلنا مع الارواح أجساما
لم تنس انك جندي التراث وقد ... شهدت باريس والتاريخ قد قاما
فجلت فيهم مجال الحق واعترفت ... لك الفضيلة ان قد كنت مقداما
يا ابن الاديب لقد اوليتنا ادبا ... يا ابن العظام لقد خلفت اعظاما
قد غبت عن معشر كانوا رأوك أبا ... فقد غدوا اذ نزلت القبر أيتاما

درا جنوا بك في الماضي محاضرة ... واليوم يجنون احزانا والآما
قد كنت تسمع شعري ثم تمدحه ... فمن له اليوم والانصاف قد ناما
من الصبا الغض مهدت السبيل له ... فلم يهب بعدها خوفا واحجاما
وكنت تبرم دوما من بني بلد ... ليسوا اذا أدلت الاداب حكاما
مستهترين بأصباغ بلا هدف ... ويقبلون على الاصنام أصناما
لا يسمعون فصيح القوم من سأم ... ويسمعون مع الاعجاب تمتاما

منذا يفضل امرارا على عسل ... الا اذا كانت الاذواق أسقاما
لو كان مثلك في عصر مضى لفشت ... اراؤه وتدانى المجد فاستاما
لو كان مثلك في حيث النهى شرف ... رأى لك الناس أعوانا وخداما
لقد مضيت عن الدنيا وباطلها ... وكان شافعك الميمون اسلاما

الحق بامي الذي قد كنت تقدره ... قدر الرجال ولا تألوه اكراما
وقل له لم يعد في الصاحبين سوى ... قدرى شديدا على الاحداث صمصاما
اذهب فرغت من الاعباء مثقلة ... وقد هدأت وجاء الموت حساما

ونحن فوق اديم الارض في صخب ... نسير نحو الخصام المر ارغاما
اصبحت في ساحة الرحمن مرتجيا ... وكل عنك الورى صحبا وأخصاما

احسان العظم

رجل

الثقافة والعلم

عبد الرزاق الاصفر

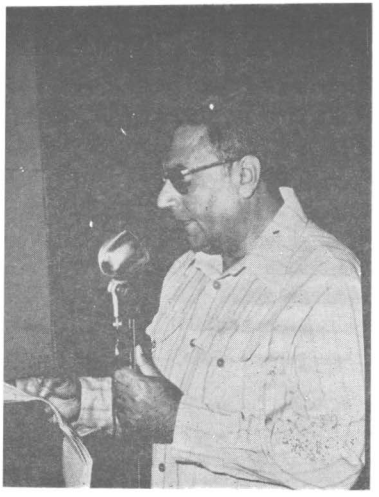

كالمصباح يستمد الزيت المبارك ويضيء للناس بينما تذوب ذباله قليلا قليلا ، تلكم حال العلماء والادباء • وأنا أقول : انهم أجل قدرا وأعلى مكانا • فالمصباح يحمد مادام متقدا • فاذا انطفأ شمله الظلام والمستصبحين . أما أولئك فعلى مدى الزمان . من الانهم . شعل مضيئة ومن اثارهم خيرات وفيرة . وما أشبههم بالشجرة المباركة تؤتي اكلها كل حين باذن ربها • وتلك لعمري حال احسان ، استاذنا الذي عبر في دنيانا كما يعبر حامل العطر ، يهديك مسا من طيبة ، فاذا أنت من أثر ذلك الطيب في متعة وانتعاش ، واذا أنت تحمده مقيما ومرتحلا ولا تزال في ذاكرتك له أروع صورة وأطيب ذكرى ••• أليست هذه صفة المؤمن الصالح التي حدثنا عنها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورفعها فوق حال الرجل المؤذي الذي شبهه بنا فتح الكير . اذا لم يحر ثيابك بعض شرره اذى عينيك وزكم أنفك بدخانه ؟ •

كان احسان مثلا في العطاء . دون أن يتبع العطاء بانة وأذى . كالنحلة لا تأكل الا طيب ولا تطعم الا طيبا . واذا كانت النحلة تعطي الشهد الذي فيه شفاء الابدان فا احسانا كان يعطي العلم الذي فيه شفاء الامم وحيا الناس • كان يتمتع بأخلاق العلماء ، نفس رضية ، وطباع مهذبة . وهمة عالية . وقلب رحيم كبير . وسريرة صافية ولسان صادق حلو الحديث وكرم مع تواضع ومحبة للجميع ومعشر مؤنس ، وجانب حفيض لين • ونحن انما نرثي في هذه الصفات . وأكرم بها من صفات . وأجدر بنا أن نتحلى بها ونروض أبناءنا وأحفادنا على التحلي بها لانها صفات العربي المؤمن النبيل •

واذا كان من حق احسان على مجتمعه احياء ذكراه ، فاولى من يبادر الى ذلك ، هذه الدار والعاملون فيها، الذين كانت تضمهم اليه أوثق الروابط والصلات وربما كنت شخصيا أكثرهم حظا في صحبته وملازمته والاستفادة منه ومشاركته في تسيير موارد الثقافة والعلم لجميع المواطنين وهي مهمة المراكز الثقافية ورسالتها الى المجتمع . لقد صحبته أحد عشر عاما في أروقة هذه الدار وكان لي قبل ذلك شرف التلمذة عليه في سن اليفاع حين جاء احسان الى المدرسة المحمدية الشرعية ليدرس اللغة الفرنسية في الصف السادس . أوائل الاربعينات متبرعا لامتكسبا ، بالرغم من حاجته الماسة الى المال بعد عودته من أوربة وقبل أن يجد عملا يعيش منه ، ولا أزال وزملائي نذكر له هذا الفضل اذ أحسن تدريسنا وحبب الينا اداب اللغة الفرنسية ولا سيما العاطفية بلهجة مشبعة بالحزن والعظمة . ومضى ذلك العام وبقيت له في نفوسنا مشاعر المحبة والاحترام والتقدير ويبدو أن التعليم لم يرق لاحسان كمهنة و للمعاماة أيضا . وانه انما فضل الوظيفة الادارية لانها تساعده على متابعة مطالعته وتتيح له فراغا مسائيا ، واستقرارا نفسيا لابد منهما لمن يهوى صحبة الكتب .

لقد شغل احسان وظيفة أمين سر لبلدية حماه.وكانما كان مع حماه والقدر على موعد حتى يسهم بمساعيه وجهوده في اعطاء المدينة مؤسسة كانت ذات شأن كبير في حياتها العلمية والثقافية والفنية ألا وهي هذا المركز الثقافي الذي بنته البلدية باسم دار الكتب الوطنية . ولهذه الدار قصة لعب فيها احسان الدور الرئيسي ، فقد استملكت البلدية مكانا وخصصته ضمن التنظيم الجديد ليكون حديقة عامة . ولما تقرر انشاء دار الكتب كان هذا مخالفة لمرسوم الاستملاك استدعت احتجاج المالكين الاصليين ومطالبتهم بتعويض . وهنا يسافر احسان العظم الى دمشق فيقنع المالكين ويأخذ منهم الموافقة على هذا التغيير . ويمضي مشروع المكتبة في طريقه وتأتي مشكلة الاساسات وصعوبة تنفيذها بسبب القرب من النهر . ويصادف أن تكون في حماه شركة تقوم بانشاء أساسات جسر الضابط شفيق العبيسي ومبنى الهاتف الالي بطريقة الاوتاد ولكنها كانت تتأهب لمغادرة المدينة بعد انهائها عملها ، فيسعى احسان لدى المسؤولين للضغط على الشركة واقناعها بالبقاء لتنفيذ أساسات المكتبة ، ويشيد البناء وتنتهي الاعتمادات المالية قبل الانجاز ، ثم تأتي عقبة التأثيث والتجهيز ثم تأتي قضية تأمين الموظفين ودفع مرتباتهم ، وكلها صعوبات مالية كان لاحسان الباع الطولى في تذليلها . وقد تحمل في سبيل ذلك الكثير من المشقات وتكبد الكثير من النفقات وسافر عشرات المرات بين حماه والعاصمة كل ذلك ليرى هذا المشروع ظاهرا الى الوجود فكانما هو مشروعه الخاص ولابد من الاشارة هنا الى مساعيه في نقل المكتبة الغربية وبقايا مكتبة نوري الكيلاني التي كانت في جامع الشيخ ابراهيم أولا ثم في جامع المدفن ثانيا الى المكتبة الوطنية مع موظفها الوحيد المشرف عليها .

ثم سعى احسان لتعيين المرحوم سامي السراج مديرا لها . وكان يحمل في نفسه تقديرا عظيما لادبه ونضاله ويرى أن من الواجب تتويج هذه المؤسسة العلمية بمثل هذه الشخصية العظيمة وأن في ذلك بعض المكافأة لسامي السراج بعد نضاله المرير وغربته الطويلة عن الوطن ، ومواساة له في ضائقته المالية بعد عودته الى البلاد في ظل الاستقلال . وهكذا يعين سامي مديرا لدار الكتب بمرتب ضئيل لا يكاد يسد رمقه ولا يتناسب مع مكانته القومية والادبية . ولا يزال احسان العظم ساعده الايمن في تنشيط المكتبة وتغذيتها واقامة المحاضرات والندوات حتى تنتقل الدار الى عهدة وزارة الثقافة والارشاد القومي آن انشئت

عام ١٩٥٨ في أوائل عهد الوحدة ـ وهنا يسعى احسان لنقل سامي الى هذه الوزارة وتعيينه بالتعاقد بمرتب شهري جيد هو ثمانمائة ليرة سورية ويسعى من جهة ثانية لتسريحه من البلدية واعطائه تعويضا مناسبا اسهم في تسديد ديونه وحل ضائقته المالية ومصاعبه المعاشية ـ وكان احسان يقوم بكل ذلك دعما للمكتبة الوطنية ووفاء لحق ذلك الاديب الكبير والشيخ المناضل الجليل ـ وكل من رافق تلك المرحلة يتذكر احسانا وساميا في كل محاضرة يتعاقبان على هذا المنبر ويتبادلان العون والمشورة ولا يكادان يفترقان ـ ولما توفي سامي لم يتخل احسان عن المركز الثقافي بل ظل صديقا له ، يحضر جميع نشاطاته ويسهم فيها محاضرا ومناظرا ومناقشا ، ويلازم المكتبة مطالعا وباحثا ويؤازرها بكل ما يستطيع وكأنها مكتبته الخاصة وما زال هذا راتبه حتى توفي رحمه الله وكان قد مضى على انشاء المركز بضعة وثلاثون عاما فهو بحق أبو المركز الثقافي والمكتبة الوطنية وقد سافر مرة الى أوروبا فلم ينس أن يحمل للمكتبة هدية المسافر فقدم اليها فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ليدن بهولندا وتاريخ الديانات العام الذي يقع في خمسة مجلدات ضخمة ابتاعه من فرنسا بما يوازي الف ليرة سورية وسافر مرة الى العراق فحمل الى المكتبة كتابا عربيا نفيسا ـ وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تعاطفه الشديد مع المكتبة ـ ـ التي عمل لانشائها والتي يعتبرها كأحد أبنائه ـ وقد قدرت له وزارة الثقافة هذه الاريحية فأهدت اليه مجموعة من مطبوعاتها مرافقة بكتاب شكر ـ

كان احسان يعد الكتاب خير أنيس وجليس والمكتبة خير مكان يجد فيه الراحة والمتعة ـ وكانت مكتبته الخاصة العامرة بالكتب والمراجع تستأثر بكثير من وقته ، يخلو فيها مطالعا وباحثا والكتب تملأ طاولته ، فاذا دجى الليل رافقته الى مخدعه ـ وحين لا تسعفه كتبه بحاجته يهرع الى مكتبة المركز الثقافي التي يؤثرها بحبه وتحنانه ، وكم يحلو لك أن تراه هناك وهو يجول بين الخزائن والرفوف يتناول كتابا ويعيد كتابا ، ثم يجلس الى طاولة المطالعة ويضع نظارتيه وبجانبه قرطاس وقلم ـ ثم يغيب عما حوله ساعات غارقا في متعة لذيذة يدون من هنا شاردة ومن هناك واردة حتى يرتوي ويشبع فضوله العلمي ـ ثم ينهض فيعيد كل شيء الى مكانه ويجلس معنا برهة يتنفس فيها الصعداء ، ويرشف نفسا من لفافته ـ أيام كان يدخن ـ ويحدثنا عما قرأ وبم ظفر وهو يستشعر سعادة عظيمة اذ يعيش في أصداء وأجواء من نشوة الباحث الذي فاز بضالته بعد التعب والعناء ـ وكان هذا شأنه في معظم الايام ، ولاسيما بعد التقاعد ـ

كان احسان يرى المطالعة ضرورة لا ترفا ـ ويأسف على على كل يوم يضيع منه بدون أن يستفيد علما جديدا ـ قال لي مرة : لقد شبعت من كل لذائذ الحياة الا من العلم ، واذا كنت أحب أن أعيش فلا مرين : اكتساب علوم جديدة في عصر تفجرت فيه ثورة العلم ومجالسة الخاصة من المثقفين واهل العلم ـ

ولم تكن مطالعته فوضوية بل لابد أن تكون موجهة الى هدف مخصوص ومسخرة لغاية معينة كقضية أثيرت وهي تحتاج الى مزيد من البحث والتحقيق أو حادث اثار لديه بعض الفضول والتداعيات أو سؤال طرح عليه من قبل مستفيد يود الوقوف على جواب وثيق له ـ حينذاك نرى احسانا ينصرف بكليته الى البحث ولا يهدأ حتى يصل الى الغاية المرضية ـ وربما توسع لديه البحث فأصبح محاضرة ـ وكان احسان يتعرض للسؤال ويحث الاخرين على أن يسألوه ولطالما سمعناه يردد الكلمة المأثورة عن علي بن أبي طالب اسألوني قبل ان تفقدوني ، وقوله : ان في صدري علما لو

وجدت له حملة ـ وما أشد غبطته حين يؤدي لانسان خدمة علمية فيرشده بها بعد أن اختلطت عليه المسالك والتأثت أمامه السبل ـ والكرم في العلم صنو الكرم بالمال ـ والكريم فيهما سعيد بعطائه وكأنك تعطيه الذي أنت سائله ـ كما قال زهير ـ على أنها صفة أصيلة فينا نحن العرب الذين علمنا أسلافنا الكرام أن لا قيمة لعلم حبيس الصدور والسطور وأن العلم لايزكوا الا مع الانفاق وأن العالم معذب بعلمه اذا لم يعمل به أو اذا حبسه عن قومه ـ

اما عن شأن أبي أنس رحمه الله مع صنوف النشاطات الثقافية الاخرى ـ فحدث ولا حرج ـ ان رواد المركز الثقافي افتقدوا مكانه بينهم ـ فقد كان يشارك في معظم الاشكال الثقافية من محاضرات وندوات مشاركة الفعال لا مشاركة المنفعل ، ويقبل عليها اقبال الجاد لا اقبال المجامل ـ واذا حدث أن وجدنا مكانه خاليا علمنا أنه اما مسافر أو مريض وكان يحرص على حضور المسرحيات الجيدة نصا وتمثيلا ويشجع العاملين في الحقل المسرحي ، ويشهد المعارض الفنية للرسم والتصوير ويشجع الفنانين الناشئين ، ويغشي الامسيات الشعرية والادبية التي تقيمها النوادي الثقافية تشجيعا لها ـ ولا ننسى مبادرته المبكرة مع بعض الشباب المثقف في مدينة حماة لاقامة مهرجان لاحياء ذكرى المتنبي في عام ١٩٣٥ واسهامه في المهرجان الذي أقامته وزارة التعليم العالي عام ١٩٧٤ لاحياء ذكرى أبي الفداء بمناسبة مرور سبعمائة عام على ولادته وكان ذلك في دمشق وحماه ، حين القى احسان بحثا ضافيا حاز على الاعجاب والتقدير في الاوساط العلمية ـ هذا اضافة الى جهوده الخفية التي كان يبذلها لانجاح الاحتفالات الاجتماعية والثقافية التي تقام على نطاق جماهيري ـ وقد كان له شرف السبق الى اقتراح تكريم مفتي حماه الاسبق الشيخ سعيد النعساني في حياته ـ فذهبت هذه سنة طيبة تتبع في حماه لتكريم أعلامها ، وحذت حذوها بعض المدن السورية الاخرى ـ

وكان احسان يحب أن يغشى مجالس العلم والعلماء وينفر عما سواها ـ واذا حضرت في أي مجلس استطاع أن يوجه دفة الحديث نحو الامور الادبية والتاريخية ـ وأخذ بقلب محدثه واستأثر بانتباهه ، وأثار اعجابه بما يورد من الحوادث والشواهد والادلة والمقارنات ـ واذا أصغى الى محدثه أحسن الاصغاء والانتباه ووعى كل ما يقال وربما عقب على حديثه بأدب واحترام وتواضع تعقيبا يفصل المجمل أو يكشف الغامض أو يسد النقص أو يقوم المعوج وكانت ملاحظاته ترد عفوا وتعتمد على مجمل مخزونه الثقافي مع حضور بديهة وسعة اطلاع وحضور ذاكرة ـ واذا ذكرنا سعة ثقافته فلا بد أن نذكر شدة اهتمامه بالادب والتاريخ ولا سيما ما يتعلق بتاريخ حماه ـ حتى غدا مرجعا في هذا المجال ـ وكم من طالب جامعي يعد دراسة عالية أحاله مدرسوه الى حماه لزيارة احسان وصنوه قدري الكيلاني حفظه الله ليأخذ عنهما التوجيهات والمعلومات التي تضيء له سبيله وتساعده في بحثه ـ وكان احسان شديد التحقيق للروايات والمقارنة بينها حريصا على معرفة سني الولادة والوفاة والحوادث ويعد ذلك رأس التحقيق التاريخي ـ

لم يترك احسان تأليف بالمعنى المعروف ، وانما ترك مجموعة من البحوث والمحاضرات والمقالات يدور معظمها حول المحور التاريخي ـ بعضها مطبوع ومنشور وبعضها مخطوط وبعضها الاخر مسجل لدى مكتبة المركز الثقافي الصوتية ـ وقد استطعت أن أحصي منها ما يلي :

١ ـ الحضارة بين التاريخ والاثر وعلاقة الشعر بهما وهو بحث تاريخي أدبي يبين أهمية الاثار والنصوص الادبية للباحث في تاريخ الحضارة بمقارنتهما مع الروايات التاريخية ـ

٢ ـ فائدة في التاريخ وأصول بحثه ٠

٣ ـ المقارنة بين مفهومي الحضارة والمدنية ٠

٤ ـ ترجمة لابن الهيثم ٠

٥ ـ بحث عن ـ ابن ميمون الحبر اليهودي الاعظم والصهيوني الاول ـ ٠

٦ ـ نواعير حماه ـ بحث ـ

٧ ـ حماه عبر التاريخ ـ محاضرة ـ

٨ ـ المشاركات العمومية في الاحداث اليمنيـــة ٠ ـ محاضرة ـ ٠

٩ ـ نضال حماه في القرن العشرين ـ محاضرة ـ

١٠ ـ أبو الفداء ، وهو بحث ألقي في مهرجان احياء ذكرى أبي الفداء عام ١٩٧٤ ٠

١١ ـ قبرص وهذه محاضرة ألقيت في المركز الثقافي ونشرت في الفداء ومجلة العربي ٠

١٢ ـ مقالات صغيرة في : الدعوة الاسلامية ـ وتراث المطالعة ـ وأصل تسمية المهرجان ٠

١٤ ـ المشمش ٠ مشروع بحث علمي وأدبي جمعت مادته وأصوله ولم يكتب ٠

١٥ ـ مقالات وتعليقات وشذرات متفرقـــة في موضوعات مختلفة نشرت في جريدة الفداء مثل تحقيقه في تاريخ علم الطب البيطري واصل تسمية بهذا الاسم وتحقيقه بين كلمة جراحي أو جرائعي وأيهما أصح ٠٠٠ وغير ذلك ٠

ولا يفوتني أن أذكر أن أبا أنس كان يعالج الشعر في بعض الاحيان وان لم يعرف في الناس كشاعر ٠ ينظمه حين تدعوه مناسبة هامة وقد عرفت له قصيدتين مطولتين احداهما في رثاء جمال عبد الناصر ، والثانية في رثـــاء الشيخ محمد الحامد ٠

وفي الحقيقة ، تحتاج هذه الاثار الى جمع وعناية ، وتستحق طباعتها في كتاب واحد يبقى مرجعا لطلاب العلم مدى الزمان ، حتى يستمر الانتفاع بالمرحوم احسان بعد وفاته كما استمر في حياته ٠

وبعد ، فهذه صورة لابي أنس محب العلم ونصير الثقافة ، أرجو أن تكون قد استوعبت معظم الخطـــوط واستوفت أهم الجوانب ، صورة رجل مر بنا مرور السحابة الممطرة أخذ من العلم ما وسعه الاخذ ، وأعطى منه ما وسعه العطاء ، وخدم أمته بكل ما يملك انسان من فضائل وامكانات ثم مضى عنا وفي القلوب حسرة وعلى الالسن ثناء ودعاء ٠ فرحمه الله رحمة واسعة ، وبارك في أنجاله وأعقابه وعوض الامة منه الخير وحفظ أمثاله من العلماء والمخلصين ٠

عبد الرزاق الاصفر

مدير المركز الثقافي العربي بحماه

جانب من الحضور اثناء حفل التابين

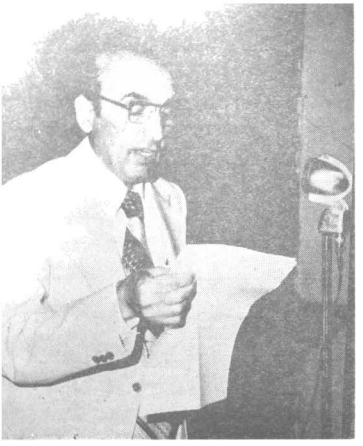

وداعاً أبا أنس

نذير الحسامي

حنانيك لا سهدا عصرت ولا حزنا ... ألم ترتشف من كل طيبة مجنى ؟
قطوف الدوالي في لياليك منهما ... اليك من الكأس التي امتلأت أدنى
فمالك لم تنضح بخمرهما هوى ؟ ... ومالك لم تسفح لشدوهما لحنا ؟
لديك بواكير الجنى من دجاهما ... فهل سكنا كأسا وهل نزلا دنا ؟
أضنا بسكر السهد ياليل والاسى ... على البوح لارن الحزين ولا أنا ؟
تراك رحمت الجرح كبرا وعفة ... فلم تر ضنا ان تخبئه ضنا ؟
أتكتم خلف الليل مغناك في الجوى ... وفي مهج العواد شوق الى المغنى ؟
وتمنعهم جدوى دواليك من هوى ... على الجمر من بلواك يدمى بما جنا ؟

وهـذي سـلال السامريـن ملأتهـا ... من الرطب المعسول ملء الضحى الاسـى
تهلـل للـوراد مـن كـل طاعـم ... اذا ذاق منهـا مـا يبل الصدى ثنـى
أبا أنس لم تـرض للعـود ان يشـي ... بجرحك فاستغنيت عنـه بمـا أغنـى
تلفت بالصمت الـذي يستحي علـى ... جـراح مدمـاة نزفـن ومـا هنـا
ضنيت فـأين الآه مـن حـرق الضنى ؟ ... أأشفق ان يهمـي بهـا قلبك المضنـى ؟
حنانيـك هل شـح النسيم برجبـه ... فعنى لياليه الـذي بالجفـا عنـى ؟
يحـن لطيف مـن نـداه وزورة ... ويسـأل عـن ريـاه بالمقلـة الوسنـى
ويحرق دمع الشكـو من صد غـادر ... بـه طالمـا في كـل رابيـة غنـى
فيـا لهفتـا للقلب ضـاق بـوده ... نسـيم لـه حـن العليـل ومـا حنـا
ذبيح بـلا نصـل شـهيقـا وزفـرة ... يقطعه حـز الـهاد بـه وهنـا
اذا ذكـر الاصبـاح غنـى لذكـره ... وودبـه جنـح الظـلام لو استأنـى
علـى مضجـع لا تـتقـر بـه رؤى ... يسيىء مـع الاحسان فيهـا الهوى الظنا
ويرقص بـالآلام فـي جنب صـاحب ... يحـاذر ان ينهـد في رقصـه ركنـا
يواري عـن الـمار دقـات حينـه ... ويحصـي خطـا الايام ترمـي به الحينا
ويفتر فيـه الجـرح عن فضـل بسـمة ... يواسي بهـا زوجـا تهدهـده وابنـا
أخـا الانس والـدنيا عـلالة حالـم ... وبـرق أمـان فـي دجاهـا جرت سفنا
ركبت جناحيهـا مـلاوات شاعـر ... وجـزت لياليهـا معنـى بهـا يعنى
صحبتـك تصفينـي ودادك كلمـا ... علـى البينات الغـر مـن ظمأ حمنـا
فمـاذا بأيدينـا ؟ يـداك مـع البلـى ... هبـاء .. وهـذي قبضتـي صفرت غبنا
ضحكنـا وأبكتنـا المنـى في محاقهـا ... لماذا ضحكنـا ؟ بل لماذا لهـا نحنـا ؟
نضجنـا عنـا قيـدا وحين دنـا الهوى ... دفنـا كرومـا والطلى يرتجـى منـا
سكبنا وشمس الافـق مـكوبـة بنـا ... فهل هـي عـادت للكؤوس وما عدنـا
فيـا رحمتـا للكـأس يصـدح بالاسى ... اذاق الهـوى خوفا وذقنـاالردى أمنـا ؟
ويارحمتـا للشـاربين نفوسـنا ... متـى نقصـوا فينا وكيف بهم زدنـا ؟
أنحـن مـع الايـام في غيهب عـم ... فليس بهـا يسرى وليس بهـا يمنـى ؟
سألنـا ضحاهـا سؤلة بعـد سـؤلة ... فلـم يشفنا خرسـا ولـم يروِنا لسنـا
ألا عفـو آيـات سقينـا بسحرهـا ... حضرت بهـا قلبـا وغبـت بهـا ذهنـا

وعفو مجاني الشعر تغلي قطافها
شردت مع الدنيا فرد ضلالتي
حنان البيان العذب انت نجيه
حديثك انفاس الرياحين في الحمى
وخلقك نثر الورد يحلو مع الضحى
فخذ بحديث الشعر والحب والنهى
ولا تترك الاسمار تيبس بيننا
أأنت بدنيانا العطاء على الهوى
أبا أنس ما اقرب الامس ظاعنا
تولى (ابو معن) وشيكا ليومه(١)
مضى الومض من ذاك الشهاب ولم يكن
أفضت بك الاسمار اذ كنت قطبها
أسيان طال الليل ام قصر الدجى
رويدك بي فيما لغوت اخا الحجى
والا فقم للايك في ألق الضحى
وصب الرؤى من كل راح مزجتها
وصبغ ثرانا بالتلاوين اننا
ألم نعبد الصباغ يصبغنا رؤى
دنانك ملأى بالرحيق نعله
شقيت بما يشقي الاماني ولم تهن
اذقت اذى النكران في موطن الوفا
وعشت على خبز العفاف مكرما
وما زلت قلبا يكن الحب ساحه
خلوت الى الاسفار تطلب وصلها
وملت الى الافكار تشتار شهدها
فتنت بها اذ رحت تفتن بالجنى
أبا أنس فارقت متعجل الخطا
تعجلت لم اشهد وداعك ساعة
تعنف بي دهري يجرب سهمه
أأرمي بقلبي فلذة بعد فلذة
أبا أنس في ذمة الحب والعلا
كفاؤك أن يسعى الوفاء بموكب
وحسبك ان تمشي الطيوب وذكرها
شأوت الميامين الرجال مروءة

أبا الانس كم طفنا حماها وكم عجنا
بأنسك اني طائر ضيع الوكنا
سموت به لفظا وطبت به معنى
تهل ندى ان جفت الكأس او مزنا
اذا ما الدجى بالطهر ضمخه ردنا
ودعنا من الدنيا وبهتانها دعنا
قصرنا عن الساعات ام قصرت عنا
كما كنت ام نحن الوفاء كما كنا ؟
من اليوم.. هل في الحي من يسأل الظعنا ؟
فاين ؟ وهل في حادثات البلى اينا ؟
ولا الموت لو تدري على كأسه أخنى
وسرت به اذ كان أضحكنا سنا ؟
وراحت (سليمى) بالهوى أم أتت (لنى)؟
أفنت باحلامي فزدني بها أفنا
نطارحه طيرا ونسأله غصنا
ورتل لنا من كل قافية وزنا
عبدنا الدنى وشيا وهمنا بها لونا
فنغدو الى رؤياه نصبغها فنا ؟
فنصبو الى الحسن الذي لا يرى حسنا
أكنت بما جربته في الشقا أهنا
ولم توله نكرا ولم تجزه ضغنا
تعاف إذا ما فاح في طيبه تتنا
وان زحمته النازلات على السكنى
وصلت .. فهل كانت لذي شقوة عدنا ؟!
اكانت على العاني يبلسها احنى ؟
فيالك مفتونا ويالك مفتنا
وعهدك في غير المكارم ان تأنى
وان شهقت نفسي لنعي اخي حزنا
بقلبي رميا بالاحبة او طعنا
وأني لي الصبر الجميل به انى
أتحمل مهدودا وفيك الرجا ينى
يقلك يامن سار فيك الهوى يمنا
بركبك لا دمعا تصون ولا جفنا
فنم في لياليهم لكل علا خدنا

(١) الصديق المرحوم اسماعيل العظم وقد توفي اوائل هذا العام .

نذير الحسامي
حماه في ١٩٧٨/٩/٤

اضواء على شخصية ابي أنس

سهيل عثمان

كان أبو أنس احسان العظم قادرا على الاستغناء عن أشياء كثيرة الا الصداقة فانها كانت جزءا لا يتجزأ من كيانه . ولذلك أتيحت لي وبعض الخلصاء فرصة الظفر بصداقته خلال العقد الاخير من حياته أو ما يزيد عنه قليلا . اذ جفت نفوس قسم من أصدقائه القدامى وانشغل بعضهم بحياته الخاصة والعائلية وارتجل نفر منهم في الارض واخر في السموات . وقد ظفرنا منه بنديم راوية يروي الشعر المؤثر والقول السائر والحكاية المثيرة والحادثة التاريخية الموحية . كما ظفرنا منه بصديق وفي يتفنن في اكرام اصدقائه ويتعدى اكرامه وبره الجانب المعنوي الى الجانب المادي على ضيق ذات يده ، وأذكر أنه لقينا يوما وهو في قمة الفرح وأخبرنا أنه قد تسلم ثمن داره القديمة التي تقرر هدمها لصالح المشاريع العمرانية ، وقد اعتبر المبلغ الذي قبضه مبلغا كبيرا وراح يتمثل بقول القائل :

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا
من كان يالفهم في المسكن الخشن

وأعلمنا أننا ـ شئنا أم أبينا ـ أصحاب حق في رحلة على نفقته الخاصة لنا أن نقترح فيها ما نشاء من أسباب النعيم ، وانهمكنا في دراسة الرحلة والتخطيط لها وطالت دراستنا كالاطفال الذين عثر واحد منهم على دينار فأخذوا يتجادلون حول سبل انفاقه واوشك الدينار أن يفلت منهم وهم مازالوا في جدلهم . ولم نكن نشعر بفارق السن بيننا وبينه بل كنا نشعر به على نحو معكوس فهو المبادر الى اقتراح الرحلة والنزهة والسياحة وهو المتحمس دائما للمدارسة والمناقشة وكان في كثير من الاحيان يحتد في المناقشة الا أن الانفعال لم يكن ليخلف أثرا غير ودي في نفسه أو نفوس الاصدقاء فسرعان ماتروق نفسه وتعود اليه طبيعته السمحة وكأن من حاجاته تفريغ الشحنة الانفعالية في وسط عطوف .

وكان ـ مساء الله بالغير ـ سخيا ببضاعته من المعرفة يحب أن يعرض ما قرأ وما اكتشف ، يحب أن يسأل فيجيب واذا لم تأت المناسبة التي تحتم الاستماع الى معلوماته خلق

هو المناسبة لذلك ثم يستفيض في الحديث المليء المتع ويشعر بعد ذلك براحة عجيبة ، وكان مما يرضيه أن يكون محل رضا واعجاب وقد ذكر لي مرة وهو جذل أنه قد شرح لسائحة أجنبية مثقفة اصل بعض الاثار وتطورها فاعجبت به وقالت له ـ ما اسعد زوجتك بك وأنت على هذه الدرجة من المعرفة • واذا كان يندفع الى الافادة بما عنده فانه لم يكن يتحرج من سؤال من يتوقع أن يجد عندهم العلم بجانب من الجوانب وان كانوا اصغر منه • وكان يعجب بكل عظيم من الاشخاص وبكل عظيم أو مستلمح من القول والفعل أيا كان مصدره مع خصه عظماء امته وخدماتها للانسانية باعث الاعجاب وكان ينتشي اذا ما اكتشف كلمة حضارية أو أداة أو دواء أو كشفا قدمته امته الى التراث البشري •

وكان ـ طابت ذكراه ـ يهوى المعرفة الحية التي تقوم على تتبع الجزئيات التي تشغل الذهن كاصل كلمة او الة أو بداية مدينة من المدن او نوع من الاغذية ولم يكن يميل الى تجاوز مرحلة الملاحظة والتنقيب هذه الى مرحلة وضع القوانين أو تعيين الاسباب البعيدة ، وقد ناقشني مرة مؤكدا أن مرحلة تحقيق الحوادث والتأكد منها هي المرحلة الجوهرية في الطريقة التاريخية لانها تقوم على البحث الدؤوب الصبور الموضوعي عن زمان الحادثة ومكانها وشخصياتها ومجراها وأما ما يعقب ذلك من تفسير ومحاولة لاكتشاف معنى الحادثة فهو معرض للاراء الذاتية الممتزجة بالعاطفة والمستمدة من التفكير التأملي الشخصي دون الجهد الواقعي •

وأما في الوجه الاخر من الحياة وهو الجانب العملي فقد كان أبو أنس كسائر العلماء والمتادبين قليل الحيلة يصرعه الفلام الناشيء في السوق اذا سم على خداعه وصرعه ، وكان يهم بمشروعات عديدة حسب امكاناته على أمل استجلاب الخير له ولاهله وأهل العلم ، ويعتمد تحقيق مشروعاته على الثقة ولم يكن من يعاملهم جديرين دائما بالثقة المطلقة التي يمنحهم اياها فيخفق حيث ينجح سواه •

وهو اذا ما أحس الاخلاص من صديق حمد الله كثيرا واعتمد عليه كل الاعتماد واشركه في جميع شؤونه فالصداقة عنده هي الرابطة الاجتماعية الارادية الاولى يكن اليها ويشعر في أحضانها بالطمأنينة ويفضلها على الهيئات الاجتماعية الواسعة فلم يكن مثلا من رجال الحياة الحزبية• ويتجلى بحثه عن حجر أمين حنون في علاقته مع الكتب فهو حين يثق بمؤلف من المؤلفين منحه ثقة لا حدود لها واعتمد عليه اعتمادا فخورا •

وهذه الملامح وامثالها جعلتني انظر الى صديقي المرحوم كطفل كبير مرهف مثقف ويبدو أن شيئا من التثبيت على موقف الطفل من أبيه قد وقع في سني نشأته • والسبب في ذلك أن والده الذي كان مثله يعتمد في أغلب المعيشة على راتب الوظيفة قد حقق مكانة مرموقة بين عقلاء قومه بعلمه وفضيلته ومرحه وكان يعامل أبناءه معاملة الاصدقاء ويشجع بواكير انتاجهم في الادب والبحث ويدرسهم كتب التراث بنفسه ويصادق من يحبون من أجلهم ولم تعوض الايام فقيدنا عن هذا المثل الاعلى الحي ، وظلت ذكريات الطفولة السعيدة المشعشعة بضياء شخصية الاب تلعب الدور الاكبر في النفس الحساسة التي ظلت خلايا الطفولة الغضة تغذيها كل العمر . ومع هذا التثبيت حدث شيء من التقمص اذا اتخذ احسان دور شخصية الاب وأصبح مبتهجا بأن يحيط به الاصدقاء والمستفيدون والمخلصون ومغتبطا بأن يكون القدوة والمثل •

وقد كان ـ طابت ذكراه ـ يرى أن يستفاد من الموهوب في عصره وان يقدر المضحي أثناء حياته وقد روى لي كيف تقرر الاستيلاء على منزل مجاهد معروف توسيعا للشارع فاوصى هو اللجنة المكلفة بتقدير ثمن البيت اذ كان على رأس جهاز البلدية بألا تعين الثمن بناء على قيمة المنزل العتيق بل بناء على قيمة ساكنه الذي يستحق أن تقدم له امته بيتا لائقا بحياة كريمة • ولكن مجتمع أبي أنس لم يحسن الاستفادة منه في حياته اذ ما كان أجدره أن يكون عضوا في هيئة مكلفة بوضع موسوعة او معجم تاريخي او تاريخ واسع أو غير ذلك من الاعمال التي ينوء بها الجهد الفردي وحده ، ولكنه يغدو مفيدا أو ضروريا اذا ما تكامل مع سواه •ولكنني أعتقد أن فقيدنا قد أوصى نفسه اذ عاش لهواياته وحشد حقائق الماضي وأماني المستقبل ليستعين بها على هضم اللحظة الحاضرة وازدراد مصاعبها• وقد تألف مع فكرة الموت نفسها فقد شعر في الاشهر الاخيرة بدنو الاجل وراح يذكر ذلك مع شيء من الاستعبار وأبيات من الشعر مناسبة وبالتدريج لم يعد ذكر اجله المحتوم مصحوبا بالكابة بل اصبح مستعدا لاتخاذه موضوعا للدعابة لو أننا وافقناه •

وليس بدعا أن يوصف أبو انس بالطفولة الدائمة فطالما وصف بها المفكرون والشعراء والفنانون ويا حبذا لو أن البشرية استبدلت بقسوة المطامع براءة الطفولة ورحمانيتها • وقد ذهب ـ حسن مقره عند ربه ـ راضيا مرضيا وترك لنا أن نحفظ تراثه ونستفيد ونفيد منه • مكننا الله من ذلك ومكن أبناءه من أن يرثوا فضائله ووداعا يا اخر الندماء •

سهيل عثمان

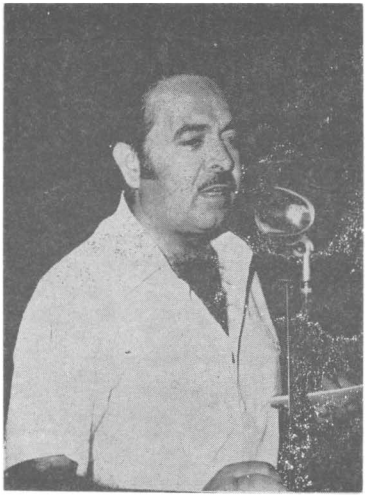

مأتم الفكر

عدنان قيطاز

أيـــن أنـــداؤه وأيـــن عبـيره ؟
وانطـوت تلكـم الليـالي الحـوالـي
آه .. هل تـورق العشـيات بالانـس
واحاديثـــه .. اتضحـك بالنعمـى
وسجـاياه مـا الســلاف اذا دارت
الهـدى السمح مـن اسـاريره ..
من سناه الرقـاف يأتلـق الصحـو
اسفا صـوح الزمـان وكـانت
وجه احسان .. يا جراحـات قلبـي
حزنـه العبقـري في سدة الخلـد
فيـه مـن رقـة النسيم اعتـلال
يتهـادى كأنـه مـن جـلال العلـم
هيبـة فـي وداعـة لا مـدلا
عف عـن ريبـة وقـد ولـغ الجـا
سـاعة العلـم عمـره وهنـاه
ان يومـا يمـر مـن غـير علـم
مـن هنـا مـر كالربيـع نضيرا
مـلء عطفيـه يخطـر الادب الضـافي

جـف كـرم الهـوى وغـاض نميره
فمتى الـوعـد ان يكـون حضـوره ؟
.. ويزهـو ـ غب الـوداع ـ سميره ؟
.. وتنـدى عـلى الجمـال سطوره ؟
.. ومـا الورد مـا أجات عطـوره ؟
يفتـر ، والحـق نسـجه وحريره
.. ويصفـو للشـاربين غديره
مذهبـات آصـاله وبكـوره
في دجـى الخطب .. كم تبلـج نـوره
.. وللشـعر وحـده تصويـره
ومـن النـرجس الغرير فتـوره
.. طـود محومـات نـوره
ان رب الامـوال جـم غـروره
ثر فيهـا ـ مهما اجنت ستوره
حـين يشـقى بجهلـه مـوزوره
كان شؤمـا عليـه .. كـان يضيره
لـم يخلف الا الشـذى مـروره
.. وان قـل في الـورى تحبـيره

تلـك أصـداؤه تـرن بسمعـي ... وكـأني بقـربـه اذ أزوره
مجلس عـامر بكـل بديـع ... أتـرى آض موحشـا معمـوره ؟
كـم سقانـا مـن البيـان أفانـين ... •• فمـن ذاقهـا استمـر مريره
يخلب العقل بالبديـه مـن الفكـر ... •• ويجري ـ محـمـدا ـ تقديره
مـا أراني اقـول في يومـه الباكـي ... •• ومـا الشعـر ؟ ما هـداه وزوره ؟
مأتـم الفكـر في ضمـير الحضـارات ... •• وفي مقلـة الزمـان عصـوره

● ● ●

قم تكلم يا ايهـا الشـم الآبـي ... •• وخل البهتـان تهوي قصـوره
حامـلا رايـة الصـواب بليـل ... أنـت فرقـانه وأنـت زبـوره
الفصيـح المبين قـد يؤثـر الصمت ... •• ويأبـى الا افتضاحـا شعـوره
ان حـرفا تخطـه بيمـين ... يتجـافى عن الهجـوع ضميـره
لا تخف صـولة علـى تالـد المجـد ... •• فان الجبـان سـاء مصـيره
البيـان الاصيـل يخلـد كالشمس ... •• وللريـح غثـه وحقـيره
يا معـز التراث دهـرا طويـلا ... لا ترع •• فالتـراث عـز نصيره
حشـد المبطلـون بغيـا عليـه ... وحشـدنا ، لكـل طـي نشوره
نحن اعلـى يـدا اذا حصحص الحـق ... •• فمـا المدعـي ؟ ومـا تزويـره ؟
قـل لماحي الضيـاء : بؤت بخـزي ... ابـد الدهـر طالعـات بـدوره
ان يكـن غـاب وجـه احسان عنـا ... فلقـد شـد للمعالـي نظـيره

● ● ●

ايه احسـان عـاد شعري حزينـا ... بعـد فرط الحنـين تبكي بحـوره
تتشظـى حروفـه في دمائـي ... آه •• كـم طـال في الضلوع زفـيره
يامجـير الاديب في الموقف القتـال ... •• جار الهمـوم من ذا يجيره ؟ (١)
خـذ عيونـي ودع عيـون القوافي ... ان شـعري صعب علـي يسـيره
كـم تمنيت ان اهـزك بالشـعر ... •• ومن لـي سـواك حـين اديره ؟
ابك يا شعر ذلك الماجـد الفـرد ... •• فعنـدي هباتـه ونـذوره

ابك يا شعـر صـاحب القلـم الحـر ... •• فـذا نظمـه ، وذا منثـوره
ابك يا شعـر روضة العلم والفضـل ... •• فـان العاصي تنـوح طيـوره
ونواعـيره تسـاقـط دمعـا ... ألحـزن نعيرهـا وخريـره ؟
لـت ادري ؟ مما ارى وأعانـي ... كل قلب مـا عـاش فهـو اسيره
ايـه يـا شـعر والمنـايا رزايـا ... لا يـرد المقـدار الا قديـره

١ ـ اشارة الى موقعه النبيل من الاديب الكبير الاستاذ سامي الدراج بعد عودته من مصر .

عدنان قيطاز

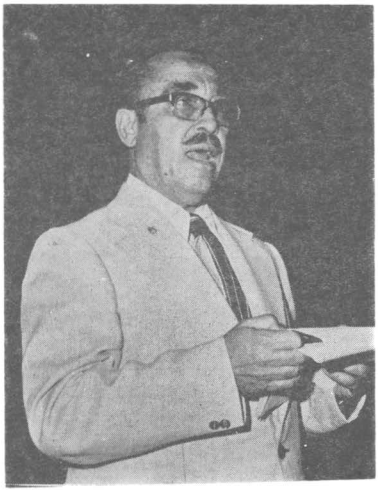

كلمة آل الفقيد

هشام العظم

ايها الحفل الكريم .

ان هذه المناسبة الجليلة . التي جمعتنا على صعيد من التأبين والكريم . قد جللها الوفاء بردائه وسما بها البر الى عليائه . وما عدل بهما شيء من الناس في هذه الحياة .

وما زالت هذه الام الروؤم . حماة البارة بابنائها الفتية بتراثها منبع الوفاء ، وكهف لرجاء ، فقد سنت في هذا المضمار سنة ما ان لعمر والله ارى لها مثيلا في سنن العالم . فلم تقتصر في دواعي التكريم على الاموات . بل تجاوزتهم الى الاحياء . فلا احلى على النفس ، ولا أقر للعين ، من ان يشهد الرجل تكريمه بنفسه . ويشارك فيه بوجدانه وحسه . فاذا مات قرير العين رضي النفس ، فكأنما صحب معه شهودا عدولا . وما دام الاجل محتوما ، والموت محموما ، والايمان وحده كفيل بالترويح والتبديد . فلا تثريب على التوديع . ولا لوم على التعجيل بالتشييع . فلكل اجل كتاب . ولكل عمل حساب . مهما طال العمر وتقنعت النذر .

ايها الحفل الكريم .

ان ظواهر الاستفتاء تغني عن البحث والاستقصاء فالمركز الثقافي في حماه . مشكورا ومحمودا . كان وراء هذه الاحتفالات . ودليل هذه المبادرات . حتى اصبح فيها مجليا بين اقرانه ، ومصليا امام انداده . فاذا كانت الاعمال باصحابها ، والمؤسسات بالقائمين عليها . فان تقويتها شامل للجميع ، فلهم شكر العلم على الايحاء . وحمد الادب على الاغراء ، وذكر التاريخ على الاحياء . ولو تطاولت منتزعا حق التسجيل والاملاء ، اما اخوان فقيدنا الغالي ، ما بين شاهد للحفل ، ومنتدب للقول ، ممن هو في حماة فحضر ، وممن تجشم عناء السفر ، فلا اجد لهم وفاء للحق ، واعترافا بالفضل . اكثر من

ان أزجي لهم جزيل الشكر وعاطر الثناء . فلقد ذكروا وافاضوا . مما نعلم ومما لا نعلم . ولا غرابة ولا لوم . فقد نجد رجالا يعرف عنهم اخوانهم اكثر مما يعرف اهلهم . وهذي لعمري اعظم قيمة واكبر منزلة للرجل من العكس . فطالما أباح الرجل لاخوانه ما اخفاه عن اهله . وطالما اسر للاخوان اكثر مما يسر للاهل، وطالما كان التبسط مع الاهل اضيع آثارا واقل اعتبارا . والرجل باخوانه اكثر مما هو بأهله . وكل في بعض الاحيان كثير .

على ان التفاوت في العموميات لا يقلل من شأن الخصوصيات . فنحن على القرب والقرابة اعرف بخصوصياته . واعلم بنزعاته . وان جاء بعضها على العموم .

وما دمنا في معرض الحديث عن الفقيد رحمه الله . ذكرا وتنويها . واخلاقا وآثارا فلا بأس علينا من زيارة في الحديث ، وافاضة في الذكر . لتكون روافد النهر الذي أجراه اخوانه . ودلائل الآثار التي وسمهاميدانه .

لقد كان رحمه الله من العفة والنزاهة بمنزلة كبيرة . وكان من المحافظة على الاخلاق والعوارف ماكان له ديدنا . وشغلا شاغلا . فطالما اوصى بها اهله . وطالما نصح بها اخوته . وطالما حث عليها ولده .

وطالما ضرب فيها المثل بنفسه :

عماه هذي بديهيات منطلقي
الى الرثاء . فلم ابلغ ولم اصل

فقد رايت جميلا ان اكون بها
على القرابة . دون الصائل البطل

كان رحمه الله في اكثر مجالسه متحدثا اديبا . يستملح الطرف فيرويها ، ويستجيد الحكم فيستشهد بها ، ولو تفاوت المقام . لانه كان نزاعا الى الارتفاع بمحدثه اكثر منه ايثارا للنزول الى مستواه .

كان اكثر ما يستأثر به الشعر . فهو وان كان شاعرا مثلا ، الا انه كان راوية مجيدا . وكان اعظم ما يكون للشعر رواية في الشواهد والحكم والامثال، فقلما خانته الذاكرة في الاستشهاد . وقلما تخلت عنه في الاسترشاد . وكان يعجبه الفنائي من الشعر . الذي يغني النفس وهمومها . والاحداث وخطوبها . والايام وصروفها .

عماه كم كان هذا الخل ثالثنا
وكم سقانا علالات على نهل

وكم شفانا على الاحداث موعظة
وكم روى النفس من مدح ومن غزل

فهل رايت وفيا غاب عن جلل
كما ارى اليوم اخوانا على الجلل

كان رحمه الله يفتش عن الحكمة حتى عند العوام . فيستطرف لها . ويحدث عنها . وكانت احب لها اعجابا . ويستمتع بها استطيابا . وكان الى هذا وذاك بارعا في المقارنة بين الحديث والقديم . فمتى نال القول اعجابه سرح بفكره لاستقصاء امثاله مما حفظ ووعى . فكان لا يقر للقديم بكل سبق وفضل ، ولكنه كان يتمنى للحديث لغة اقوى . وفطرة اصفى ، حتى يجيء على شاكلة القديم . وحتى تصح المقارنة . وتستقيم المعادلة ، فكان مذهبه في ذلك مذهب ابي تمام في الشعر حيث يقول :

ولو كان يفنى الشعر افناه ما قرت
حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه فيض العقول اذا انجلت
سحائب منه اعقبت بسحائب

وكان رحمه الله على كثرة روايته ، وفيض احاديثه ، حسن الاستماع قوي الانتباه شديدالملاحظة على الهفوات . سريع الانتقاد على السقطات . فكانت ثقافته اخلاقا . ومنهجه فيها اوسع آفاقا . فلم تكن له شخصية حافظة راوية . وشخصية في المعاناة مخالفة . فكان يراود نفسه دائما على التمتع بشخصية واحدة في المعرفة والمعاناة . فكان يعتبر العلم مهذبا للطبائع . والثقافة معززة للاخلاق . ولا جدال في ذلك عنده . فكان اكثر ما يكره الاستهانة بالاخلاق والتهلهل بالتمسك . وكان اكثر ما يكون استعاضا وبرما بالسامع اذا كان عطن المروءات قليل المبالاة . وبالمحدث اذا كان ضعيف الاستيعاب طائش الجواب . فكان يقال عنه بانه يعيش لوحده . ويكتفي برفده . والحقيقة في التفاوت .

وكان مع ذلك في بعض الاحيان على تقبض . فكنت تراه مع بعض العوام مضاحكا وممازحا ومداعبا . لان خفة الظل وحلاوة الروح وحسن الفهم وفطرة الذكاء ، صفات كانت تحل عنده في المتطلبات الاجتماعية ما تحل عنده المتطلبات الثقافية في بعض الاحيان . فكان رحمه الله مع من يستظرف ويستلطف اكثر انغماسا في الحديث ، وطلبا للاستزادة من الروايات والنكات ولو كانت لولا حسن الاداء من الترهات .

كان اكثر ما يرتاح في مجالسه الى العلماء والفضلاء . فكان يتغذى بالحديث العلمي وبالخلق الروحي . فكان يشيد ويغرق في الاشادة بما سمع وبما راى . فلم تكن فيه عادة الانطواء والاكتفاء . بل كان متعلما ومعلما . وكان اكثر ما يعجبه من العالم افكاره ونظرياته . ومن الاديب طرقه وروايته فيحصي لهما المؤلفات ويكثر عنهما الاحاديث والروايات . حتى يشجع السامع وينبه الغافل . فطالما قال : حدثني فلان . وروى لي فلان . فاذا خانته الذاكرة مرة الح عليها ضربا باصبعيه واغماضا في عينيه حتى تستجيب له . لم يكن فقيدنا رحمه الله على كثرة انشغاله بالعلم والادب والتحقيق والتاريخ بمعزل عن السياسة . فقد كان كثير الاهتمام والاستماع . دقيق التحليل . يمعن في ربط الاخبار وتقاطعها وتوقع النتائج . وكان حتى في السياسة خلقيا . فلا يرى فيها مبررا للانحراف . ولا موجبا للتهلهل . وان كان يعتقد بالانصراف لها على حساب سائر المرافق والمشاغل .

كان رحمه الله اوصلنا رحما . واكثرنا زيارة للاهل والاقارب ، وكان جامعا للشمل محبا للجميع ، ينفق عن سخاء ويسبق في اقامة الولائم ليرى العائلة باجمعها مجتمعة عنده . فاذا رآها افاض على كل فرد منها الكثير من دعاباته ومزاحه وملاطفته .

وكان اكثر ما يكون سرورا عندما يرها على مائدة الطعام تأكل وتشرب . اما هو وفي ايامه الاخيرة فقد كان ملتزما بحميته ، مجليا باريحيته . فكان صابرا محتسبا . وكثيرا ما كان ينعي الينا نفسه وقرب اجله .

وليعذرني الاخوان اذا افضت ذكرا في الحياة الخاصة . فهي مكملة للعامة وطالما حدث رحمه الله عن الرجالات في العام والخاص . على انها دلائل وشواهد على النماذج الطيبة من الرجال . وعلى انها الوحدة الاخلاقية المتماسكة في جميع ما يصدر عنهم من تصرفات .

كان رحمه الله دائم التفكير . فكان في شغل شاغل حتى في اوقات فراغه . فكان اذا انفرد أمعن تفكيرا ومعالجة لما الم به من خواطر ومشاكل . فكنت تلحظ عليه وكأنها طوع يديه . فلم اره مرة هائما على وجهه مسترسلا في غيبوبته . الا اذا اخذته سنة النوم وهو على سريره . فكان في اليقظة دائم التمالك شديد التماسك .

عماه والذكريات الغر ترمقني
فما اجدت على الاغراء من املي

فنازل الموت فيما حز من اسف
على الفراق اقام السد في سبلي

عماه لولا تراث المرء من ادب
ومن سخاء ومن قول ومن عمل

ومن مجيد على التاريخ يذكره
ما استمطر الناس رحمات على الرجل

عماه هذي بديهيات منطلقي
الى الرثاء . فلم ابلغ ولم اصل .

فقد رايت جميلا ان اكون بها
على القرابة ، دون الصائل البطل

اذا كفتك سؤونات العلى غرر
من الحياة ، ومن ذكر ومن حلل

ومن دواع من التابين خف لها
ما بين منتدب فيها ومحتفل

فقد تعزى وفاء كل ذي حزن
وفي الوفاء عزاء الفاقد الثكل

ايها الحفل الكريم : نحن لا ندعي شططا باننا اوجع الما وافدح مصابا باحسان رحمه‌الله من الاصحاب والاخوان . ولكننا اصبحنا اجمل عزاء واكثر سلوانا بما شاهدنا وبما سمعنا . فنحن مع تسليمنا بحكم الله وامره ، راينا انه لا يعيش على العزاء اكثر من الوفاء ، ولا يساعد على السلوان اكثر من الاخوان ، فهذا دور المروءات . بل هذه هي المروءات .

وانت يا حماة الخير . ويا موئل الاحرار . ويا موطن الوفاء والمروءات . لقد طال الغياب وقل الاياب فلا زيارة الا لحضور المآتم وتشييع الكرائم ، واصبحنا على البعاد والفراق اكثر احصاء ومعرفة بالاموات من الاحياء . ولكننا اذا رجعنا الى الديار لا نقف الا على صعيد طهر وذكريات غر . فان لم نكن في الحي من النزلاء فنحن في السعي من السفراء . ولكل دوره في الحياة ، وما خلف الراحل والمقيم اجمل من الذكريات واطيب من الاحاديث . اما اذا تقطعت الاسباب على الغياب . فلا اجدر بالغائب اذا حضر من ان يقف على العاصي ويستفتيه ويحتكم اليه :

اذا وقفت على العاصي اسائله
عن الديار . وعما دال من دول

اشار والدمع يهمي من دوائره
الى الديار . فلم اعثر على طلل

حماة يا موئل الاحرار من بلد
فلا تضني على الغياب بالنزل

اقول عتبك والمحزون منكفىء :
جرح تنزى . واصداء على وجل

اذا قسوت عليهم في حياتهم
يا مسقط الراس . كوني مسقط الاجل

ايها الحفل الكريم :

انني باسم آل العظم وبيت الفقيد اتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان . لمن اقام الحفل ولمن شاهده وساهم فيه ، ولمن سعى اليه متجشما عناء السفر . واخص بالشكر اولئك الاخوان والاصدقاء من شعراء وخطباء وعرفاء . واعود قاصدا لاخص المركز الثقافي ومديره الاستاذ عبد الرزاق الاصفر بجزيل الشكر وعاطر الثناء .

راجيا للجميع عيشا سعيدا وعمرا مديدا . واجماعا على الوفاء والمروءات . ففيهما يتعايش الناس . وفيهما تتبابن الطبائع وعليهما تستقر الاخلاق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسائل و برقيات

الـــى
المركز الثقافي العربي بحماه

وزارة الثقافة والارشاد القومي تشاركم الحفـــل التأبيني الذي تقيمونه اليوم لفقيد الثقافة والادب المرحوم احسان العظم • فقد كان رحمه الله أحد كبار رجال الادب الذين أحسنوا تقدير التراث العربي مثلما أجادوا في تعريف أبنـــاء هذا العصر به ، وكان الى دمائـــة خلقه وتواضعه العلمي دؤوبا في نشر المعرفة الصحيحة والدفاع عـن الادب العربي وكل ما أبدعته الحضارة العربية •

تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان •

وزيرة الثقافة والارشاد القومي

الدكتورة نجاح عطار

الى المركز الثقافي العربي بحماه

قبل أربعين سنة التقيت بالمرحوم احسان العظم لاول مرة ومنذ ذاك التاريخ وحتى يوم وفاته بقيت مرتبطا به تجمعنا صداقة عاطفية وحرص مشترك عـلى نشر التراث العربي وتعريف الناشئة به ووصل ماضي الفكر العربي بحاضره كان بالنسبة الى ابناء جيله طاقة عطاء وخير تقدم أفضل ما عندها للناس دون أن تطلب منّة وجزاء ستظـــل ذكرى أخينا احسان العظم حية في عقولنا وقلوبنا • رحمه الله رحمة واسعة وألهم أبناءنا والاجيال الناشئـــة أن تواصل طريق الخير والمحبة التي سلكها الفقيد في هـــذه الحياة الدنيا •

معاون وزيرة الثقافـــة

محمد أديب اللجمي

أخي أبا أنس

لا أملك في تأبينك الا عبرات ترق ولا ترقأ ، وتهد ولا تهدأ ، ولئن طواك الردى طي الرداء، فلقد نشرتك الوية الثناء ، انت يا من كنت مثالا في خلقك ، مثالا في علمـــك ومروءتك •

وكنا نتمنى أنه لو امتد بك الاجل ، فلا نحرم مـــن خلقك العذب ، واخائك الرحب ، ولكن الامور تأتي علـى غير المراد ، والموت نقاد يختار من الجواهر الجياد :

ابدا تسترد ما تهب الدنيا
فياليت جـودها كـان نجـلا
فكفت كون فرحة تورث الغم
وضـل يفـادر الوجـد خـــلا

عمـر يحيـى

لسيادة رئيس المركز الثقافي العربي في حماه المحترم

تحية عربية طيبة

تسلمت في صباح هذا اليوم بطاقة دعوتكم للحفل التأبيني الذي تقيمونه احياء لذكرى فقيد العلم والثقافة المغفور له احسان العظم فشكرت لكم اجزل الشكـر اهتمامكم بالاشادة بفضل ارباب الفكر والنبوغ، وقدرت فيكم وفي الاساتذة الخطباء والشعراء ، ما تبذلونه من جهد ادبي مبرور ، في سبيل تكريم العاملين المخلصين لوطنهم وللفتهم وتراثهم المجيد ..

انني انحني بخشوع ، في محراب ذكرى ذلـــك الراحل الغالي ، الذي ستظل ذكراه خالدة معطرة الى الابد ، وارجو ان اشير الى حفل التأبين في العـــدد القادم من مجلة ــ الضاد ــ . ولو لا ارتباطي بموعد سابق لا سبيل الى ارجائه ، لهرعت للمشاركة في الحفل المهيب الذي امل ان يتلاءم ومكانة الفقيد العزيز .

وتفضلوا بقبول الاحترام .

صاحب مجلة الضاد ورئيس تحريرها
عبد اللـه يوركي حـلاق

تحية الى حماه ... من مصياف

استن ادباء حماه سنة جديدة ، يجدر اتباعها . فما ونوا يقيمون حفلات التكريم لاعلامهم ، رجال العلم والثقافة والادب ــ الاحياء منهم والاموات ــ حتى باتوا مضرب المثل في الوفاء للذين نهلوا من غدق معينهم ما نهلوا ، فجاءت كتاباتهم واشعارهم ، بمستوى لائق من الجودة والاصالة ، في الشكل والمضمون .

ولا اذهب بعيدا ، فبالامس القريب اقاموا حفلتي تكريم للشاعر الطبيب وجيه البارودي ، وللعربي الكبير عمر يحيى . فلم ار اجمل من وقفتهما ، يردان التحية للخطباء والمحتفلين ، وعيونهما تقطر بدموع الفرح .. انهما استوفيا حقهما من الحياة ، فلا خوف عليهما ، وهنيئا لهما بما صنعا .

من سخريات القدر ــ وتقدرون فتضحك الاقدار انهم كانوا يستعدون لاقامة حفلة مشابهة للمؤرخ البحاثة احسان العظم ، لو لا ان عاجلته المنية ، فلم تكتحل عيناه بمثل ما اكتحلت به اعين السابقين : تلاميذ يرتلون سور الوفاء نثرا كانه الدر وشعرا كانه السلافه . ولذلك اقاموا هالة في ــ ذكرى الاربعين ــ . وفي قلوبهم حسرات وفي عيونهم دموع .

خير عزاء ان هشاما العظم قد تقمص شخص عمه الراحل : ففي كلمة الشكر لال الفقيد ، مرج الشعر والنثر ايات ، هي ذوب عاطفته لعمه والمواطنين وهي الارومة العريقة التي تمطر الجو بالشذا .. فلقد بكى واستبكى ، وحق له ان يبكي ويستبكي . ولكم سجع سجعا جميلا ، حين عبر ابلغ تعبير ، عن حنينه الى حماه ، مدينة النواعير ، فماله من امنية ــ وقد اضطرته الظروف الماحقة الى ان يكون بعيدا عنها ــ سوى ان يدفن فيها . وقد خرج الحاضرون وهم يرددون الشطر الثاني من بيته :

..... يا مسقط الراس كوني مسقط الاجل

اسبغ الله على الفقيد فيض رحمته ، بقدر ماله من اياد بيض على الثقافة والمعرفة . وتحية لك يا مدينة ابي الفداء من مصياف ــ الحي الغربي لحماه ــ لان فيك من يقدرون الفضل ، و ــ الفضل لا يعرفه الا ذووه ــ !! ..

مصياف — مصطفى الخش

مديرية المركز الثقافي ــ حماه

اخلص التعازي بالمرحوم الاستاذ احسان العظم وانه لنموذج كريم من الرجال خسرته الثقافة ، الصبر والسلوان لال الفقيد ومحبيه والشكر والتقدير لابناء حماه الاوفياء .

الدكتور عمر الدقاق
عميد كلية الاداب بحلب ورئيس فرع اتحاد الكتاب بحلب

المركز الثقافي ــ حماه

المعذرة لعدم تمكني من حضور حفل تأبين استاذنا الكبير المرحوم احسان العظم بسبب سفري الى ايطاليا .

ياسر الفرا رئيس تحرير جريدة البعث

بطاقة شكر

تتقدم بجزيل الشكر للسادة الادباء والشعراء ورجال الاعلام الذين وفدوا مدينتنا للمشاركة بتابين فقيدنا المرحوم احسان العظم ونخص بالذكر الاستاذ عبد العزيز الربيعي من ادباء المملكة العربية السعودية والاستاذ سعد صائب والاستاذ مدحة عكاش ، صاحب مجلة الثقافة والاستاذ مصطفى الخش من ادباء مصياف والاستاذين ياسين الفرجاني وغازي التدمري من حمص ونشكر جميع الاساتذة الادباء والشعراء الذين شاركونا ..

لجنة التكريم ..

ابو الاسود الدؤلي شاعراً

جودت صالح

روى ابو الفرج الاصبهاني في اغانيه : ـ ان المنصور لما مات ابنه جعفر وانصرف الى قصره بعد دفنه قال للربيع وزيره : انظر في اهلي ينشدني : امن المنون وريبها تتوجع . حتى اتسلى بها عن مصيبتي . فطلب الربيع ذلك في بني هاشم، فلم يجد من يستطيعه فقال المنصور : والله لمصيبتي بأهل بيتي الا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الادب اعظم واشد علي من مصيبتي بابني ـ (١) الاغاني ٦/٦١ . نقلا عن كتاب المعارف لابن قتيبة تحقيق : د . ثروة عكاشة . بهذه الروح الادبية المتوثبة ، وبهذه النظرة المتميزة كان العرب الاول مع الشعر . فالشعر ديوانهم به سجل حياتهم واخبارهم ووقائعهم . فهم كانوا اشد الاقوام احتفاء بنبوغ شاعر بينهم ، ويكفي ان تعلم ان القبائل العربية لم تكن تهنىء بعضها الا بغلام يولد ، او بفرس تنتج ، او بشاعر ينبغ .. ومن يقلب صفحات تاريخ العرب في الجاهلية سيعثر على كثرة شعرهم وشعرائهم حتى انه ليقول ـ دون مغبة او حرج ـ ان العرب كلهم اجمعين كانوا شعراء . فالذي لا يقول الشعر منهم كان يرويه . ـ ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافرا لحاركم علم وشعر كثير . ـ (٢) ابو عمرو بن العلاء .

اسمه ولقبه وولادته :

هو ظالم بن عمرو بن سفيان من بني كنانه ، ولعل لقبه الذي لقب به قد جاءه من سواد كان به . يقول ابن شعير يهجو احد النجاة : (٣) . انباه الرواة للقفطي جـ ٢ ص ٥٣

لو تلففت في كساء الكسائي
وتفريت فروة الفراء
وتظللت بالخليل واضحى
سيبويه لديك عبد سباء
وتلبست من سواد ابي الاسود
ثوبا يكنى ابا السوداء

لابى الله ان يـــراك ذوو
الالباب الا في صورة الاغبيـــاء

ولد ابو الاسود في الجاهلية وتوفي سنة ٦٩ هـ . يقول ابن خلكان : ــ توفي ابو الاسود في البصرة سنة ٦٩ هـ في طاعون الجارف وعمره خمس وثمانون سنة ــ (٤) وفيات الاعيان ص ٢١٨ . وهو من اسرة عريقة تتصل بالنسب النبوي الشريف . ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله ابن عباس . لزم عليا في بقية حياته، ودخل في طاعة معاوية بعد وفاته . كان يتشيع لال البيت . وكان تقيا صالحا :

واذا طلبت من الحوائج حاجة
فادع الاله واحسن الاعمالا

فليعطينك ما اراد بقدرة
فهو اللطيف لما اراد فعالا

ودع العباد ولا تكن بطلابهم
لهجا تضعضع للعباد سؤالا

ان العباد وشانهم وامورهم
بيد الاله يقلب الاحوالا

وقد نبزه احدهم بالبخل والشح .

الدؤلي شاعر الحكمة :

الحكمة اسم جميل لمعان اجمل ، فهي تسير بصاحبها نحو الطريق الاقوم والمنهاج الاصوب . والحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها التقطها .

وحكمة ابي الاسود ذات طابع اسلامي، فهي مستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ومن التأثر باقوال الامام علي بن ابي طالب حبيب الشاعر ، وقرة عينه .

ان الحياة المديدةالتي عاشها شاعرنا خليقة بان تجعله حكيما ينطق بالصواب وبالحق :

تعودت مس الضر حتى الفته
واسلمني طول البلاء الى الصبر

ووسع صدري للاذى كثرة الاذي
وكان قديما قد يضيق به صدري

اذا انا لم اقبل من الدهر كلما
الاقيه منه طال عتبي على الدهر

لقد تعود الضراء ، وصابر الصبر ، ووسع الاذى صدره . ولكن ايعتب رجل كابي الاسود على الدهر ؟ انه يعرف تقلبات الايام ونكباتها ، ولذلك نراه يغض الطرف ويمشي في سيره الطويل .

وليست حكمة ابي الاسود مستمدة من الرجم بالغيب واستلهام المجهول . بل انها حكمة مبنية على الايمان ، حكمة شعارها التوكل والسعي ، ودثارها التقوى والدعاء الى الله :

واذا طلبت من الحوائج حاجة
فادع الاله واحسن الاعمالا

وما طلب المعيشة بالتمني
ولكن الق دلوك في الدلاء

تجئك بملئها يوما ويوما
تجئك بحماة وقليل ماء

ولعل قصيدته التعليمية هي خير ما وصلنا من شعر الحكمة :

يا ايها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدا بنفسك فانهها عن غيهـا
فاذا انتهت عنه فانت حكيـم

لا تنه عن خلـق وتاتي مثلـه
عـار عليك اذا فعلت عظيـم

فاترك محاورة السفيه فانها
ندم وغب بعـد ذاك وخيـم

واذا جريت مع السفيه كما جرى
فكلاكما في جريه مذمـوم

واذا عتبت على السفيه ولمته
في مثل ما تاتـي فانت ظلـوم

واذا طلبت الى لئيم حاجـة
فلقاؤه يكفيـك والتسليـم

فارج الكريم ، وان رايت جفاءه
فالعتب منه والكريم كريـم

الدؤلي شاعر آل البيت :

الحقيقة ان الاسلام خفف من غلواء الشعر ، ومن كذبه ، فمنذ ان انزلت الاية الكريمة : ـ والشعـراء يتبعهم الغاوون ، الم ترانهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون مالا يفعلون ، الا الذين آمنو .. ـ (٥) الشعراء. كانت الحد الفاصل بين شعراء الجاهلية الذيـن يهيمون في كل واد ، وبين شعراء الدعوة الاسلامية الذين صدقوا ما عاهدوا اللـه عليه ، وكان منهم شاعرنا ابو الاسود . ان شعر المديح الذي سبق الاسلام ، كان مدحا للخمر ولدنانه او مدحا كاذبا مبالغا فيه للممدوح بالقوة والشجاعة . اما الان فقـد اختلفت النظرة ، واختلف الهدف . ان ابا الاسود يشيد بعقيدة الممدوح وباخلاقه ، وبجهاده في سبيل نشر راية الاسلام :

يقـول الاذلون بنو قشـير
طوال الدهر لا تنسى عليـا

فقلت لهم وكيف يكـون تركـي
من الاعمال ما يقضـي عليـا

احب محمدا حبـا شديـدا
وعباسـا وحمـزة والوصـيا

وجعفر ان جعفر خير سـبط
شهيدا في الجنان مهاجريـا

بنو عم النبي واقربـوه
احب الناس كلهم اليـا

انه مديح من نوع اخر ، يدخل بـه ابو الاسود الدؤلي باب ريادة مديح ال البيت من مصراعيه .

الرثاء والفخر عند الدؤلي :

لم يرث ابو الاسود احدا سوى ال البيت . وفي رثائه لهم نجد الصدق والحب العميق ، ويجمع بين التخليد والبكاء . ولعله اول من فتح باب البكاء واسعا في رثائه لمن بعده . ولعل مقتل ائمة ال البيت قد جعل الشعراء يذرفون الدموع الغزار على ائمتهم ، وقـد وفر لهم مادة لانفاذ لها من الصدق ورثاء الاماجد . وكان طابع البكاء والحزن هو ميسم شعرهم :

ولعل اروع ما قاله ابو الاسود في رثاء ال البيت هذه القصيدة الرائية :

الوجه الآخر للحزن

رضا رجب

هـارب ايهـا الزمـان الـى الحب ... فطر بـي عـن اعـين الاقـدار
لا تثـر موجـك العنيف بدربـي ... كـن امانـا وراء هـذ يالجـواري

انـا طلـع الربيـع .. زقزقـة الطـير ... اصيـلا .. ونقـرة الاوتـار
كـل هـذي الاشجـار يأكلهـا الجدب ... وتبقـى مزهـوة اشجـاري

هـازئـا بالظـلام طـرت لعينيـك ... وكفـي يلـم قمـح النهـار
احمـل الخصب للحقـول فدربـي ... ضـوع ورد ، وملتقـى ازهـار

نقشـت شعـري الجميل على الصخر ، ... فشعـري تعلـة الاسـفار
انـا والبحـر توامـان كـلانا ... متـرف بالغمـوض والاسـرار

ما لهـذي الامـواج تصعـد في الافـق ... وتعلـوا ، كـأنهـا افكـاري
وانـا .. الليل صاحبي ، وعلـى دربـي ... تميـس النجـوم ميـس العـذاري

عتـق اللـه في دنـانـي حيـاة ، ... وغصـن النـدي بالـثمـار
لـت بالشـاعر المحلـق ان لـم ... اجمـل الخصب ، حلم هذي الصحاري

• • •

ايهـا الليـل . لا تـل عـن جراحي ... تسأل الروض عـن شـذا الازهـار ؟
ايها الليـل .. لا تـل عـن همومـي ... تسأل الشـط عـن كنـوز البحـار ؟

عب مـا شئت من مواجعهـا الضوء ... وللـم مـا شـئت مـن اقمـار
ضحك الشامتـون : فليسألوا النـار ... فانـي اضرمتهـا باختيـاري

انـا اطعمـت للهيـب شبابـي ... لاري حسـن جنتـي فـي النـار
كلمـا قلـت للنجـوم : استحمـي ... بدموعـي ، تهـدلت كالثمـار

• • •

لا تكون الثمـار صالحـة الطعـم ، ... وكـانت عقيمـة فـي البـذار .

رضا رجب

حوار
بين فأر و فيلسوف

احمد عوض النشاش

وضع الفيلسوف كتابه جانبا بعد ان انهكته القراءة .. وكان النعاس قد بلغ مبلغه به ، فتمدد على سريره الخشبي وما لبث ان استسلم لنوم عميق .. كل شيء كان هادئا في تلك الحجرة الصغيرة التي تقبع في احد ازقة القرية .. الا ان احد الفئران المختبئة في احد جحور ذلك البيت رفض استمرار الهدوء فخرج من جحره بحثا عن شيء يقيم به صلبه ..

اعتاد الفيلسوف ان يضع كتبه في المكتبة الخشبية التي يملكها ، لعلمه بمدى فتك الفئران بما تقع يداها عليه .. ولكنه لا يدري كيف نسي الكتاب على الطاولة في تلك الليلة .. وهاهو الحذر الذي يحرص عليه الفيلسوف قد ذهب الان .. وكانت فرصة مواتية للفأر الذي ما ان شاهد الكتاب ملقى على الطاولة حتى اندفع نحوه بسرعة .. واخذ يمني نفسه بعشاء لذيذ في هذه الليلة ...

تسلق الفأر الى الطاولة .. ونظر الى الكتاب بتمعن .. والقى نظرة ثانية على الفيلسوف الذي علا صوت شخيره .. فاطمأن الفأر الى الوضع .. وبدا بقرض صفحات الكتاب .. ودفع الفضول بالفأر الى تصفح صفحات الكتاب وقرض ما يمكن منها .. واتاح له نوم الفيلسوف العميق الاستمرار في القرض حتى اتى على اغلب الكتاب .. ولم يكف الفأر عن القرض الا حين تحرك الفيلسوف في سريره لينقلب على الناحية الثانية . عندها ترك الفأر الطاولة مسرعا واتجه الى جحره ..

نهض الفيلسوف من نومه في الصباح وفرك عينيه وفوجيء بالواقع الاليم الذي حاق بالكتاب .. وكاد لا يصدق عينيه .. حدق جيدا .. ولكن الواقع المؤلم ظل ماثلا امامه .. وبدأ يضرب كفا بكف ... وهو حائر ماذا يفعل . ان هذا الكتاب رافقه منذ زمن بعيد .. ويحرص عليه حرصه على نفسه .. ويحتوي على اهم مبادىء الفلسفة .. ولا بد لكل من يريد ان يكون

فيلسوفا ان يقراه .. ولكن ما العمل الان .. فالكتاب قرض اغلبه الفار .. ومن غير الممكن القراءة فيه الان . وبدا بتوجيه اللوم الى نفسه اذ كيف يزول حرصه هكذا مرة واحدة .. وعلى هذا الكتاب بالذات .. وتمنى لو ان العملية حدثت لكتاب اخر .. ولكن ما فائدة الاماني الان .. قرر الفيلسوف ان يشن حربا ضد الفئران .. ولكن ما ذنب كل الفئران .. اذن فليتربص للفار الذي احدث الفعلة بالكتاب اذ لا بد ان يعود .. وعندها سيصفي حسابه معه ..

وفي جحر مظلم من احد جحور البيت ، كان ذلك الفار يعاني من الالام التي احدثتها عملية تلك الليلة .. اذ ان راس الفار بدا بالتضخم واصيب بعسر هضم لم يعرف له سببا .. ولكنه عزاه الى ذلك العشاء الفلسفي الذي تناوله تلك الليلة ..

كانت محتويات ذلك الكتاب مادة فلسفية محضة احدثت تاثيرا كبيرا على الفار .. واحس الفار ان مشاعره بدات بالتغير .. وبدات تدور في ذهنه تساؤلات كثيرة .. وهو الان لا بد ان يناقش ويناظر في كل شيء .. ويبحث عن العلة في كل موضوع .. ويشك في كل ما امامه حتى يصل الى اليقين .

خرج الفار من جحره بعد ان لبث اياما لا يغادره .. وهو يتوقع مقابلة الفيلسوف وان كان يتحسب لتلك المواجهة .. وبدا الفار بالبحث ، ولكن لم البحث فهو قد حفظ زوايا البيت غيبا ، فليس فيها اي شيء .. ولولا نسيان الفيلسوف لذلك الكتاب لاستمر جوعه الى عدة ايام .. وبينما كان ينظر هنا وهناك انتبه الفيلسوف لصوت خروشة الفار فهب واقفا واحضر لوحا من الخشب اعده للقضاء على الفار بعد اعتداء الاثم على الكتاب ..

امسك الفيلسوف باللوح الخشبي ، وبدا ينظر يمينا ويسارا لعله يرى الفار واذا بصوت هادىء ينادي الفيلسوف :

ـ ايها الفيلسوف .. دع عنك هذا .. فلا داعي لقتلي ؟

استغرب الفيلسوف ، اذ انه يعلم يقينا ان البيت ليس فيه احد غيره ، وهو يرفض فكرة وجود جان يتحدثون مع الناس . اذن فمن الذي يحدثه .. نظر وحدق فاذا بفار صغير يهز راسه ويتحرك نحو الفيلسوف .. امسك الفيلسوف باللوح واتجه نحو الفار فقال الفار :

ـ من جديد اقول لك دع عنك هذا .. واسمح لي ان اسالك لماذا تريد ان تقتلني ..

رد الفيلسوف بحنق ظاهر :

ـ ومن انت حتى تسالني هذا السؤال ؟ انا اريد ان اقتلك لانك تستحق ذلك .

ـ دع عنك هذا يا عزيزي .. وليس المهم من انا ، فليس المهم المسميات فانا رغم علمي بانني سأظل فارا الا انني وبكل تواضع اود ان استفسر منك عن سبب محاولتك لقتلي ..

ـ يبدو انك انت ذلك الفار الذي سطا على الكتاب قبل ايام واتى على اكثره ..

ـ نعم انا هو !

ـ وبعد هذا تسالني لماذا اريد ان اقتلك ؟

ـ هل سألت نفسك يا حضرة الفيلسوف لماذا اقدمت انا على هذا الفعل ؟ انت فيلسوف ، وانا الان مثلك ، فما تعلمته انت ، عرفته انا بعد ان هضمت مواد كتابك .. والفلسفة لها اعتناء بالاسباب والنتائج .. اذن لو طبقت انت ما تنادي به لعذرتني في سطوي ـ كما تقول ـ على الكتاب ..

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

ـ ما اريد قوله هو انك تعلم اننا معشر الفئران لا نجد ما ناكله الا اذا كانت هناك بقايا طعام ملقاة خارج البيت .. او بالاستيلاء على بعض الموجودات في البيوت .. اننا لا بد ان نعيش مثلكم ، وما دام الامر كذلك فمن حقنا ان نؤمن لقمة العيش بالطريقة التي نراها ما دمتم تجاهدون من اجل حرماننا اياها ..

ـ ولكن لاتنسى ايها الفار المتفلسف انكم تحدثون اضرارا كبيرة للبشر .. فانتم تنقلون مرض الطاعون ، وزوج واحد من الفئران يأكل هو ونسله خلال سنة ما يزيد على الطن من الخبز .. هذا فوق ما تحدثونه من اضرار للكتب والملابس والاثاث . من اجل كل هذا نحاربكم ..

ـ وانت يا عزيزي يجب الا تنسى انكم تستعملوننا في ابحاثكم .. فهل تنسى ـ سكتر ـ ومتاهاته . وهل تنسى ابحاث علم النفس والطب على الفئران .. انكم رغم ادعائكم باننا مصدر شر لبني البشر الا انكم في نفس الوقت تتخذون من سلوكنا منارا في ابحاثكم العلمية .

هنا وقف الفيلسوف ونظر الى نفسه والى محاوره واستغرب كيف استغرق في هذا الحوار رغم ان محدثه ليس اكثر من فار .. وضحك في داخله من نفسه كيف يقف هذا الموقف من فار صغير .. ويجد ان هذا الفار يحاوره بهذا الاسلوب .. فقال في نفسه : لماذا ازعج نفسي بهذا الحوار ، لاقتله واسترح منه .. ولكن اذا قتلته فسيكون هذا موقف عجز مني . اذ كيف اهرب من مناقشة فار .. اذن فلا واصل معه الحوار .. قال محاولا اخفاء تضايقه من الحوار :

ـ حسنا ايها الفار .. تعترض على استعمالنا لكم في التجارب العلمية .. ولكن لا بد ان تعلم ان هذا للضرورة العلمية ، ونحن نستعمل الفئران وغيرها من الحيوانات لهذه الضرورة فقط ، ولا يعني هذا تراجعا عن موقفنا منها .

هنا صرخ الفار بحنق ظاهر :

ـ عجب امركم .. تهتدون بسلوك هذه الحيوانات .. ورغم هذا تعادونها اليس هذا تناقض .. اليس هذا استغلال للضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة دون اي مقابل ؟ قل لي ماذا تقدمون لهذه الفئران او الحيوانات بعد انتهاء التجارب ؟ اليس اكثر هذه الحيوانات يموت تحت التجارب فداء لكم .. وفوق هذا تظلون على موقفكم ..

رد الفيلسوف وصبره يكاد ينفذ :

ـ الغريب انك ايها الفار تتحدث وكانك صاحب حق .. انا لا زلت عند رايي بأنكم مصدر ازعاج لبني البشر .. ورغم هذا فنحن لا نطمس الحيوانات كل حقوقها ، بل اننا رفقا بالحيوانات اقمنا .. جمعيات للرفق بالحيوان ..

قال الفار وهو يخفي ضحكة :

ـ لا ادري لماذا تضحكون على انفسكم ايها الناس عندما تقولون بأنكم اقمتم جمعيات للرفق بالحيوان . ماذا فعلتم للحيوان ؟! انكم تتخذون من هذه الحيوانات وسائل للتسلية وللكسب المادي في السيرك وفي حدائق الحيوان .. ولولا ذلك لما اهتممتم بهذه الحيوانات .. وعندما لا يعود للحيوان فائدة فانكم اما ان تقتلوه او تسحقوه . وبذلك تثبتون انكم ماديون ونفعيون في سلوككم . ان هذه الجمعيات ليست بفائدة للحيوان ، لان الحيوان يعتاد الحرية واما عندكم فان حركاته تصبح محسوبة عليه ، ومن المفروض عليها ان تفعل ما تأمرونها به ..

هنا ادرك الفيلسوف ان لا فائدة من وراء اطالة النقاش ، فقال :

ـ يبدو انني قد اطلت الحديث معك . فانت رغم تفلسفك ستبقى فارا . ولا قيمة لكل ما تقوله . ومن المؤسف ان اتناقش معك . ولهذا فالافضل ان انهي معك النقاش .

وامسك الفيلسوف باللوح الخشبي من جديد وهم بان يضرب الفار الا ان الفار فر من وجه الفيلسوف وظل الفيلسوف يجري خلف الفار .. وكان منظرا مضحكا اذ ان الفار اخطر الفيلسوف للجري خلفه والدوران في الحجرة بشكل مستمر .. وبعد ن انهك الفيلسوف وقف بينما اختبأ الفار خلف احد ارجل الطاولة الخشبية المتربعة في احد اركان الحجرة ..

وعندما لا حظ الفار وقوف الفيلسوف قال :

ـ لا بد ان نلتقي ثانية يا حضرة الفيلسوف .. ونواصل النقاش .. ولم لا نواصله الان ؟!

وهم الفار بمتابعة الحديث ، ولكنه سمع صوتا غريبا في البيت واذا بقط اسود تقدح عيناه شررا قد اقبل ، فقال الفار وهو يولي هاربا :

ـ وداعا ايها الفيلسوف فان القط لا تجدي معه المناقشة !

ليبيا ـ احمد عوض النشاش

احزان رجل منسي

بلقاسم البرهومي

اقبل المساء .. واسدل معه الليل ظلامه الدامس الحالك على شوارع القرية المنجمية القابعة بين كثبان الفسفاط المترامية الاطراف والجبال العالية الشامخة. كان المطر ينزل بغزارة ، فتتساقط حبات الماء الزلال على بطحاء الدشرة في تؤدة .. كانت السماء تلبس السحب والغيوم الحالكة .. وبين اللحظة والاخرى تهجم سيول الانواء على الابنية المتواضعة والمنازل المتداعية .. وكنت اسمع حشرجة طوب الجدران المتآكلة وهو يتهدم .. فيهزني المجارف عنيف .. واحس كأن قلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي شفقة على تلك العائلات التي يرفع كافة افرادها ايديهم لله تعالى طالبين الرحمة ، وهم خائفون مذعورون من تكاثر العواصف الشتوية والرياح الباردة .

ـ ياربي ! اللطف ! . الرحمة ! ـ لا عنا لا باش .. لا علاش ـ .. اه ياربي !. اللطف الرحمة ! ـ

وكنت انا في ركن من الغرفة التي اقطنها مع اخوتي الخمسة اطالع .. احاول ان انسى تفاصيل احزان عمري ... اغوص في الكتب والمجلات المتناثرة امامي بعض السويعات .. هذه قرية ـ ام العرائس ـ بكل همومها تغزو مخيلتي .. احزان الناس فيها تتمطط عبر سطور ذكرياتي المظلمة .. وفجاة تصيبني نوبة بكاء حادة .. بينما تنغرس علامات الدهشة والاستغراب على شفتي امي وتسألني في ذهول مصطنع :

ـ ما لك يا ولدي .. !

واشعر ان نار الثورة يتأجج لهيبها في داخلي .. فاصرخ في وجه والدتي العجوز :

ـ امي .. امي . اني العن يوم ولادتي .. كرهت الشوارع القذرة المتجهمة . سئمت الناس ، والاشياء في هذه المدينة الحزينة .. بل حتى نفسي صرت امقتها .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ . لا اعلم . لا اعلم . هأ انني الان في عز شبابي ابغض الشباب !! هنا في قريتي لا توجد نوادي تسلية ، مقاهي ، دور شباب ، مراقص ، مسابح . لاشيء .. لاشيء .. لاشيء .. غير الفسفاط والغبار ..

ونظرت الى امي فوجدتها تبتسم بسخرية وتقول لي :

ـ لا يهم يا ابني .. لا يهم ..

وانتفضت فجاة ، وقمت فجمعت اوراقي المتناثرة ورميت بها في جيبي ، وخرجت لا الوي على شيء .. وصرخات اخوتي ترتفع ورائي ..

انا هارب .. هذا الطريق يمتد طويلا امامي .. الى اين انا ذاهب في هذا الظلام الموحش والمطر المتواصل ؟. ذلك ما كنت ـ اجهله ـ كنت اجر خطاي

في تثاقل فيجرح قدمي الحصى المرشوش على قارعة الطريق .. كانت قطرات المطر تنهال على وجهي .. وتقدمت بعض الخطوات .. هذا ـ العربي ـ راقد ملقى على ـ جرد زواره ـ يحملها على ظهره صيفا شتاء .. رمى بنفسه على جزء منها واتخذ من جزئها الاخر غطاء يحميه من لسعات البرد والمطر .. رمقني بنظرات بائسة لها الف معنى .. مد لي يديه المكدودتين ..

ـ ربيع خبزه .. الله يفد احوالك ..

اسرعت الى اقرب دكان في الحي .. اشتريت الخبز والسردين .. ورجعت .. اعطيتهما اياه .. وجلست قربه . كان يأكل بنهم شديد لا يوصف بينما رحت انا افكر .. كنت مطرق الراس.. تنتابني الافكار والهواجس .. اندفعت القي عليه سؤالا طالما خامرني كلما جلست الى ـ العربي ـ هذا الرجل البائس ..

ـ ما رايك في الحياة ؟

اغمض العربي عينيه لحظة ثم انطلق يحكي وكأنه ينتظر هذا السؤال من زمن بعيد ..

ـ اه يا بني .. ماذا اقول عن هذه الحياة ؟ لقد امتص الزمن الظالم رحيق عمري .. ها ان الفقر والغربة ينهشان جسدي وانا بين اهلي .. نعم بين اهلي اتلوى في احزاني .. جائعا .. عاريا .. ولا من رحيم اسمع يولدي . لقد كنت اشتغل بالمنجم مثل غيري من العملة مطمئن البال .. مرتاح الضمير .. ثم ما لبثت ان وجدت نفسي اخالط اولاد الحرام فشربت الخمرة .. وصرت ذا سلوك مشين .. وطردت من عملي بدعوى اني مجنون .. وتنكر لي كل الاهل والاقارب ... وعندها فقط ادركت ان الصداقة منفعة متبادلة تدوم بدوامها ، فحملت ادباشي ، وسافرت . لا تسالني الى اين ؟؟ فقد كنت امشي ولا اعرف اين ساقف .. وبعد ان زالت عني اتعاب السير في الصحراء دخلت الارض الليبية .. لم اجد في الحقيقة ما كان يراودني من احلام وأماني .. واثقلت على الغربة والهجرة .. ووجدت الجوع يلتهمني فرصتني عقاربه الموحشة فشددت بيدي على بطني ، وصبرت .. طلبت الخبز .. تسولت .. واخيرا . اظلمت الدنيا امام عيني .. وانسدت في وجهي ابواب الرزق .. فمددت يدي للسرقة .. سرقت يا ولدي !! هل تتصور ما هو ابشع من السرقة وقبضوا علي .. وصرت سجينا برسف في الاغلال .. كان الدم الاحمر القاني ينبجس من اجزاء جسدي مع كل ضربة من حارس السجن .. وعشت خمس سنوات كاملة وانا في ظلام السجن .. وجاء يوم !! خرجت فيه من السجن .. فرحت ابحث عن الشغل .. لم اجده ، وصرت بطالا .. ما العن البطالة في بلاد الغربة يا بني !! وذات مساء . رموا بكل المتسكعين والغرباء في شاحنة وكنت معهم .. شعرت بالخيبة لان امالي التي سطع نورها ذابت كالسراب الخادع .. ورجعت الى قريتي .. طلبت الشغل فلم اجد غير البطالة .. امتلأت ذاكرتي بالوعود الكاذبة .. والان .. هاانني كما تشاهد .. غريبا لا ملجأ يضمني . ولا رفاق ولا اصحاب ولا خلان يعطفون علي .. الفقر مسمار حاد يمزق شظايا جسمي .. ماذا اقول لك اكثر من هذا عن الحياة ؟ .. انها خائنة ... تقتل نور الحياة في الوجوه .. تذكرني يوما يا ولدي.. لا تقل ـ العربي ـ مجنون .. انا مجنون لان كلام الناس ينبح كالكلاب الضارية امامي ووراءي .. لم اطق صبرا ياولدي .. تمردت على الحياة ، وعلى تقاليد الناس . ما رايك يا بني في ثورة رجل منسي .. عفوا !! ما كان لي ان اسأل مثل هذا السؤال .. طبعا انك لتعرف ان ثورة انسان ضعيف ، حزين ، فقير ، مجنون سوف بنا لها الفشل الذريع ..

ابتسمت في مرارة .. خرجت الكلمات مغوية من فمي .. قلت له :

ـ اني مثلك يا ـ العربي ـ .. احزاني تشبه الى حد بعيد متاعبك .. سنبقى اصدقاء ، فقراء غرباء .. في مدينة منجمية .. يغطي القسفاط وجوه عمالها .. جرداء اشجارها .. قفراء شوارعها ... عطشى اهاليها .

ودون ان اكمل حديثي مد لي صديقي الجديد يده .. وتصافحنا على امل اللقاء غدا في مثل هذا الموعد .. ورجعت الى منزلي الحقير وفي الطريق كنت افكر .. كيف سأبني صداقتي مع رجل منسي ..

بلقاسم البرهومي

تونس ـ ام العرائس : ٤ مارس ١٩٧٤

عابر الجدران

قصة للكاتب الفرنسي مارسيل اهمي

ترجمة: محمد سعيد واحمد الكيلاني

في حي مونمارتر وفي الطابق الثالث رقم ـ ٧٥ ـ مكرر من شارع اورشان . كان يوجد رجل رائع اسمه دوتايول وكان دون ان يتضايق من ذلك · يضع نظارة ذات سلسال ـ بينوكل ـ وله عثنون اسود ، كما كان موظفا من الدرجة الثالثة في وزارة السجلات ·

يمتطي الحافلة الى مكتبه شتاء ، ويقطع المسافة على قدميه في الايام ذات الجو اللطيف ، ويضع على رأسه قبعة سوداء متطاولة ·

كان دوتايول قد شارف على الثالثة والخمسين من العمر · فذات مساء ، وعلى اثر انقطاع قصير في التيار الكهربائي ، مما حمله على تلمس طريقه في الظلام لحظات · وعاد التيار فجأة ، ليجد نفسه على مائدة الدرج الغارجي للطابق الثالث · وبما ان باب شقته كان مغلقا من الداخل فقد جعل هذا الحدث يمعن في التفكير ، على الرغم من تحذيرات عقله له · وقرر الدخول الى بيته كما خرج منه عبر الجدار · هذه المقدرة الغريبة التي بدت ، وكأنها لا تتجاوب مع اي من طموحاته ، جعلته يتضايق قليلا · وفي اليوم التالي وكان يوم السبت ، اغتنم العطلة وذهب لمقابلة طبيب الحي . كي يعرض عليه حالته ·

فاقتنع الاخير بصحة اقواله ، واكتشف ـ بنتيجة الفحص ـ سبب مرضه ، وعزاه الى تصلب بالولبي في الاختناق الدرقي ، وعزاه مرة ثانية الى ارهاق شديد وانى حبتي دواء كان قد ابتلعهما منذ سنة ، والى امتصاص مسحوق ـ بيريت الثلاثي التكافؤ ـ المخلوط الارز وبهرمون السنتور ١ ·

وبعد ان ابتلع حبتين من الدواء الموصوف ، القى به في احد الادراج ، ولم التعب الشديد ، فان نشاطه كموظف كان مقننا ، لا يمكن ان يوصف بالافراط كما كانت ساعات فراغه معدة لقراءة الصحيفة والاعتناء بطوابعه · وما كان عمله هذا ، ليجبره على اي تبديد طائش للطاقة ·

وفي نهاية العام ، انقطع عن ممارسة قدرته على النفوذ عبر الجدران تماما ، ولم يجربها حتى نهاية السنة ، وان كان قد استعملها سهوا في بعض الاحيان · لانه غير تواق الى المغامرة ، وصعب الانقياد وراء الخيال · ولم تراوده ابدا فكرة الدخول الى شقته الا بواسطة الباب وبعد فتحه حسب الاصول وسماعه صوت القفل ·

ولو لم يقع له حادث طارىء غير مجرى حياته ، لبقي يعيش بسلام مع تلك العادات التي اعتادها دون ان تساوره فكرة وضع قدراته على المحك·

فالسيد مورون معاون رئيس مكتبه نقل الى وظيفة اخرى، وحل مكانه احدهم ويدعى السيد لوكوبيه الذي كان موجز الحديث ، وعارضاه على صورة فرشاة ٠ ونظر معاون المدير منذ اليوم الاول بعين السوء الى دوتايول الذي كان لـه عثمون اسود ، ويضع نظارة ذات سلسال فبدأ بمعاملته كشيء قديم مزعج قدر ٠ والاسوأ من هذا ان معاون المدير كان يدعي ادخال اصلاحات على دائرته ، كان لها الاثر البالغ وكأنها وجدت خصيصا لتنغيص سكينة موظفه دوتايول ٠

فمنذ عشرين عاما ، ودوتايول يبدأ مكاتباته بالصيغةالتالية ـ اشارة الى مراسلتكم الموقرة ، المؤرخة بتاريخه ، وتذكيرا بمكاتباتنا السابقة ، اتشرف بأن اعلمكم ٠٠٠ ـ هذه الصيغة كان السيد لوكوبيه يفكر بان يحل محلها صيغة اكثر حداثة ، وعلى الطريقة الاميركية ـ جوابا على رسالتكم المؤرخة بتاريخه اعلمكم ٠٠٠٠ ـ ٠

غير ان دوتايول ، لم يستطع التأقلم مع طرق المكاتبة الجديدة ٠ وكان يعود عنها قسرا الى الطريقة التقليدية ، بعناد الى سبب له مزيدا من بغضاء اليد لوكوبيه ، فاصبح حجو وزارة السجلات ثقيلا عليه ٠

كان يأتي الى عمله متخوفا في الصباح ويعاوده التفكير ربع ساعة وهو في سريره قبل ان يداعب الكرى جفنيه ٠ وعمد السيد لوكوبيه ـ وقد توغر صدره بسبب هذه الرغبة الرجعية التي كانت تعرض للخطر نجاح اصلاحاته ـ اقول عمد الى تنحية دوتايول ووضعه في غرفة صغيرة نصف مظلمة ، كانت ملحقة بمكتبه تشبه الصومعة ، وكان بابها الصغير المنخفض يطل على الممر ، وقد حمل لافته كتب عليها بالاحرف الكبيرة ـ غرفة المهملات ـ ٠ وقبل دوتايول هذه الاهانة التي لا سابقة لها بقلب مفعم بالاسى ٠ ولكنه عندما كان يوجد في منزله ، واثناء قراءة عمود الحوادث في صحيفته التي يبتاعها ، كان يتخيل كل الحوادث الدامية قد حدثت للسيد لوكوبيه بالذات ، وانه امسى ضحيتها ٠

داهم السيد لوكوبيه ذات يوم صومعة دوتايول ، وهو يجمجع ويلوح برسالة قائلا ـ اعد كتابة ذي الورقة القذرة ، اعد لي كتابة هذه الورقة ، التي لااعرف ماذا تسمى ، لانها تدنس سمعة دائرتي ـ لقد اراد دوتايول ان يحتج ٠ الا ان لوكوبيه كان قد نعته بالحشرة الروتينية بصوت يهدر كالرعد ٠ وقبل ان يغادر لوكوبيه الغرفة ، اعتصر الرسالة التي كان يحملها بيده ، والقاها في وجه دوتايول ٠

صحيح ان هذا كان متواضعا الا انه كان آليا ٠ وعندما غدا وحيدا في صومعته ، استعظم الامر ، وشعر بنفسه انه واقع تحت سيطرة الايحاء ، ففادر مقعده ، ودخل في الجدار الفاصل بين مكتبه ومكتب لوكوبيه معاون المدير وقد ولج بحرص شديد، بحيث لا يبرز منه غير رأسه من الجانب الاخر من الجدار ٠

كان لوكوبيه جالسا الى طاولة العمل ، وهو لايزال ينتفض من الغضب ، وفي يده ريشة الكتابة ، ينقع مواضع الفواصل في معاملة انجزها احد موظفيه واكتشف ـ بكثير من الذهول والخوف اللذين يصعب تصورهما ـ رأس دوتايول ملتصقا بالجدار ، وكان هذا الراس تذكار من اوابد الصيد ٠ الا انه كان حيا ٠٠ ويرسل عبر نظارته ذات السلسلة نظرة كراهية ٠ وبدأ الرأس بالكلام حالا :

ـ ياسيدي انت سعلوك واحمق وصبي افاق ٠

لم يستطع السيد لوكوبيه ، الفاغر الفم دهشة ، ان يبعد عينيه عن هذا المنظر ٠ لكنه استطاع اخيرا ان ينتزع نفسه من كرسيه وان يقفز الى الممر ويركض حتى الصومعة ، ليجد دوتايول ممسكا ريشته بيده وهو جالس في مكانه المعتاد متخذا وضعا هادئا يدل على العمل ٠

نظر اليه لوكوبيه فترة طويلة بعد ان غمغم بضع كلمات ثم عاد الى مكتبه ٠ ولم يكد يجلس حتى عاد الرأس الى البروز من الحائط يقول :

ـ ياسيدي انت سعلوك واحمق وصبي افاق ٠

ظهر الرأس من الجدار طوال هذا اليوم وفي الايام التالية ، اكثر من عشرين مرة وبنفس الايقاع ٠ لان دوتايول كان قد وجد بعض السهولة في هذه اللعبة ٠

ولم يكتف بشتم رئيسه فحسب ، بل بدأ يوجه تهديدات غامضة ٠ كان يصرخ قائلا بصوت كصوت الآتين من القبور ، متبوعا بضحكات شيطانية تقول :

ـ الو غارو ٠٠٠ هالو ٠٠ هالو

يا شعر الديب ٠٠٠ بدك قضيب

انت مخيف ٠٠٠ مانك شريف

انت مشؤوم ٠٠٠ اكثر من اليوم

وما ان يسمع معاون المدير المسكين هذا الصوت ، حتى يمسي شاحبا ، ويشعر بالاختناق، وينتصب شعر رأسه ٠ ويبدأ عرق شبيه بعرق الموت يتصبب من ظهره ٠

نقص وزنه في اليوم الاول بمقدار ليبرة ، واضافة الى هذا فقد صار في الاسبوع التالي يأكل الحساء بالشوكة ، ويحي تماثيل حـ ــ حرس السلام ــ تحية عسكرية ·

وجاءت عربة الاسعاف في بداية الاسبوع التالي لتقله الى منزله ·· ومن ثم الى المصح · اما وقد تخلص دوتايول من جو غريمه ، فانه استطاع العودة الى عباراته العزيزة ــ اشارة الى رسالتكم الموقرة ·· المؤرخة ···· ــ وعلى الرغم من ذلك ، لم يشعر أنه قد شفي غله تماما ·اذ ان شيئا ما بداخله كان يحرض رغبة جديد مسيطرة ، للمرور عبر الجدران ·

وبالطبع فد كان يستطيع القيام بذلك بسهولة · فغدا يدخل الى منزله عبر الجدران ، وما كان لينسى ذلك ابدا لكن الرجل الذي يملك مواهب لامعة ، لم يكن يقدر ان يقنع ــ ولوقت طويل ــ بممارستها في موضوع تافه كخلافه مع معاون المدير لوكوبيه · فالمرور عبر الجدران لا يمكن ان يشكل بعد ذاته هدفا · بل هو نقطة انطلاق لمغامرة ، يترتب عليها نتائج ، وتطور، له مغانمه المادية عامة · وقد فهم دوتايول ذلك جيدا وشعر برغبة ملحة في قرارة نفسه في استكشاف المجهول . واكمال ما بدأه وتجاوزه ايضا ·

كما احس بشوق يشده الى ما خلف الجدران · ولكن الهدف كان لسوء الحظ ينقصه فيبحث عنه من خلال قراءته للصحيفة ولاعمدة السياسة والرياضة التي كانت تبدو له م ن النشاطات التي تبعث على الاحترام لكنها لا تشبع اي طموح من طموحات امثاله ممن يعبرون الجدران ·

واستقر رأيه اخيرا على اعمدة الحوادث المختلفة ، التي وجد فيها العديد من صنوف الايحاء · وكان من نتيجة ذلك اول عملية سطو قام بها دوتايول · وسرحها مؤسسة ودائع مالية كبيرة ، تقع على الضفة اليمنى لنهر السين · فقد اجتاز اثني عشر جدارا وحاجزا ، واستطاع الدخول الى خزائن حديدية متنوعة ، وملأ جيوبه ، بالاوراق المالية · وقبل ان يغادر المؤسسة، وقع بخط جميل، وبالطبشور الاحمر ــ غارو غارو ــ ·

وبرز هذا التوقيع في اليوم التالي ، على متون الصحف كلها · ولم يمض اسبوع حتى شهد اسم غارو غارو انتشارا منقطع النظير · وكان تعاطف الجمهور ينطلق بدون تحفظ ، مع هذا اللص العبقرى ، الذي قهر الشرطة بطريقة تثير الاعجاب ·

وكانت غاراته الجديدة التي يقوم بها كل ليلة ، ويوقع فيها باسمه ، تقترن بأذى بليغ يلحقه بمصرف او بمحل مجوهرات او منزل احد الاغنياء · ولم تكن هناك امرأة لديها القليل من الخيال في باريس او في الارياف لم تتملكها رغبة شديدة في ان تهبه بجسمها وروحها الى غارو غارو الرهيب ·

وبعد سرقة ــ ماسة برديفالا ــ الشهيرة والسطو على الخزانة المركزية ، وكلاهما وقع في الاسبوع ذاته وصل حماس الناس الى حد الهوس ، واضطر وزير الداخلية الى الاستقالة ، جارا باذياله وزير السجلات · وغدا دوتايول اثناء ذلك ، احد اغنى اثرياء باريس وظل مواظبا على مكتبه مع هذا كله حتى قيل بانه مرشح لوسام الاكاديمي ·وكان جل سروره كل صباح في وزارة السجلات ان يستمع اه تعليقات زملائه حول مآثر هذا الفارو غارو ــ في الليلة السابقة ، اولئك الذين كانوا ينعتونه بالرجل الرهيب ··· والانسان الخارق·

كان دوتايول وهو يسمع هذا الاطراء يحمر من الارتباك ، وتشع نظراته بالمحبة والعرفان خلف نظارته ذات السلسلة ، لاوصاف اولائك الاصدقاء · ووصل به هذا التعاطف يوما الى درجة ايقن معها انه لن يستطيع الاحتفاظ بسره فترة اطول · وتطلع الى رفاقه يوما وقد تحلقوا حول جريدة تشير الى عملية السطو على مصرف فرنسا ، وقال بصوت متواضع خجول ــ ·

ــ اتعلمون ·· غارو غارو هو انا·

وانطلقت الضحكات متفجرة لا تنتهي في وجه تصريح دوتايول الذي وسم استهزاء بلقب ــ غارو غارو ــ وكان موضوع نكات لا تنتهي من قبل زملائه في المساء لدى مغادرة الوزارة · وشرعت الحياة تبدو له اقل بهجة من قبل · وبعد بضعة ايام اسقط ــ غارو غارو ــ نفسه عامدا ، بين يدي احدى الدوريات الليلية في محل للصاغة كائن في شارع لابيه ــ شارع السلام ــ وذلك بعد ان سجل توقيعه على طاولة الالة الحاسبة حيث كان الزبائن يدفعون نقودهم ، وبعد ان كان يغني اغنيات السكارى ··· وهو يحطم كافة الواجهات مستعينا على تحطيمه بانية من الذهب الخالص ·

لقد كان من السهل عليه ان يغوص في احد الجدران ، وان يفلت من رجال الامن · غير ان كل شيء كان يحملنا على الاعتقاد لا ، بانه قد اراد ان يلقي القبض عليه · ويحتمل انه ود ذلك لهدف وحيد هو اسكات زملائه الذين كان عدم تصديقهم لحديثه قد أهانه كثيرا ·

وفوجيء هؤلاء بالحقيقة ، حينما نشرت الصحف في اليوم التالي ، وفي الصفحة الاولى صورة دوتايول واسفوا كل الاسف لانهم تجاهلوا صديقهم العبقري · ولتكريمه اطلقوا عثانينهم تشبها به ·

اما البعض الاخر وقد استجره الندم والاعجاب معا ، فحاول ان يمارس نفس ادوار دوتايول ،ولكن بسرقة دراهم وساعات اصدقائهم وممارفهم • ويبدو انه اسلم نفسه للشرطة ، ليثير دهشة زملائه ، على الرغم من ان هذا العمل يدل على خفة لا تليق برجل فريد مثله•

والحقيقة ان رغبته في اثارة الدهشة لم تكن العامل الرئيسي في قرارة • وبما ان دوتايول رغب عن الحرية ، فقد ترك نفسه هدفا لرغبة معاكسة • بينما كان في الحقيقة ينساق ببساطة الى قدره وما من مستقبل مشرق لرجل يعبر امام دوتايول في زاويةشارع قليلا •

وحينما دخل دوتايول الى زنزانات ـ دولا سانتيه ـ سجن الصحة ـ وهو اكبر سجون باريس ، تملكه شعور بان القدر يؤثره على سواه • لان سماكة الجدران كانت مهزلة حقيقية بالنسبة اليه • واكتشف الحرس ـ بذهول شديد ـ في صبيحة اليوم التالي ، ان سجينهم قد علق ساعة مدير السجن الذهبية ، على مسمار على حائط زنزانته • وعجزوا على ان يستخلصوا منه كيف حصل عليها ، كما اعيدت الساعة الى مالكها •

ووجدوا في اليوم التالي قرب رأس ـ غارو غارو ـ حيث ينام، الجزءالاول من رواية الفرسان الثلاثة وقد جاء به من مكتبة المدير ، فجن جنون موظفي ـ دولا سانتيه ـ وبلغ بهم الكللاقصاه•

اما الحرس فقد اشتكوا ، من انهم يتلقون الركلات في اقفيتهم ، وكان ومالوا الى الاعتقاد با نالجدران ليس لها اذان كما يقال بل لها اقدام •

ظل ـ غارو غارو ـ سجينا اسبوعا كاملا • وحين دخل مدير السجن الى مكتبه ذات يوم ، وجد على طاولته الرسالة التالية ـ السيد المدير ، اشارة الى محادثاتنا المؤرخة بتاريخ١٧ الجاري وتذكيرا بتعليماتكم العامة المؤرخة بـ١٥ مايس من السنة الماضية ، اتشرف بان اعلمكم انني قد انهيت قراءة الجزء الثاني من الفرسان الثلاثة ، واعتزم الهرب هذه الليلة بين الساعة ١١ر٢٥ والساعة ١١ر٣٥ وارجوكم ياسيدي المدير ان تقبلوا خالص احترامي •

وعلى الرغم من الحراسة المشددة • التي اخضع لها غارو غارو تلك الليلة ، فقد استطاع دوتايول الهرب في الساعة الحادية عشرة والنصف • وعند وصول الخبر الى الجماهير في صباح اليوم التالي عمتها حماسة شديدة بالغة • ونفذ دوتايول خلال ذلك ـ عملية سطو توجت شعبيته ، بدا فيها غير مهتم بالاختفاء ودون اية احتياطات • وبعد ثلاثة ايام من هربه ، تم توقيفه قبيل الظهر في شارع ـ كولانكور ـ وفي مقهى الحلم وذلك عندما كان يتناول النبيذ الابيض الممزوج بالليمون ، مع مجموعة من الاصدقاء • واقتيد مرة اخرى الى سجن الصحة ، واغلق عليه الباب بالمزلاج • بحركات ثلاث والقي في زنزانة معتمة • الا ان غارو غارو ـ هرب منها في ذات المساء ، ومضى للنوم في شقة مدير السجن وفي غرفة الضيوف نفسها • وفي ضحى اليوم التالي ، وفي الساعة التاسعة ، قرع الجرس لتأتيه الغادمة بطعامه الذي تناوله في السرير • حيث القى الحرس الغاضبون القبض عليه دون اية مقاومة •

وقد امر المدير ـ وهو يستشيط غضبا ـ بوضع مركز حراسه على باب زنزانته ، وان يطعم الخبز الجاف • وقبيل الظهر كان السجين يتناول طعامه في مطعم مجاور للسجن • وبعد ان احتسى قهوته هتف الى المدير قائلا •

ـ الو ، السيد المدير ، انا في مازق ، لانني نسيت ان اخذ من محفظة نقودك ثمن الغداء عند خروجي وانا الانرهين فاتورة المطعم • فارجو ان تتكرموترسل احدهم لدفع الحساب •

ركض المدير بنفسه يهدد ويشتم ، وبما ان دوتايول شعر بان كرامته امتهنت ، فقد هرب ، في الليلة التالية والى الابد • الا انه كان شديد الحرص هذه المرة • فحلق عثنونه الاسود واستبدل نظارته ذات السلسلة بنظارة لامعة ، وستر رأسه بقبعة رياضية ، وارتدى سترة فضفاضة مكعبة وبنطال غولف ، وكان جميع هذا كافيالتمويهه• واستقر في شقة صغيرة في شارع ـ جونو ـ نقل اليها جزءا من امتعته واثاثه قبل توقيفه الاول •

كانت ضجة شهرتهقدبدأتتتعبه،منذ اقامته الاولى في سجن ـ دولا سانتيه ـ وغدا يرتاح كثيرا للمرور عبر الجدران • مع ان اكثرها ثخنا ومناعة ، تبدو له حواجز بسيطة • وبدأ يفكر بالولوج في قلب بعض الاهرامات المصمته • حتى صار مشروع السفر الى مصر يلح على ذهنه • وكان يعيش اثناء ذلك حياة وادعة ، موزعة بين مجموعة طوابعه والسينما والنزهات في مونمارتر •

وجعل تنكره تاما الى درجة انه اذا مر باقرب المقربين منه لم يعرفه ،غير الرسام جان بول الذي لا تفوته شاردة ، ولا يخدعه اي تنكر طارىء على ملامح اي ساكن قديم في الحي • فقد استطاع ان يكتشف شخصيته الحقيقية •

ووجد نفسه ذات صباح ، وجها لوجه امام دوتايول في زاويـــة شـــارع ـ الابروفوار ـ • ولم يتمالك نفسه عن ان يقول بلهجته العامية ـ •

ـ ارى انك تنكرت بشخصية رجل انيق لتخدع مفتشي الامن •

فتمتم دوتايول :

ـ اعرفتني ••

وتملكه اضطراب شديد وقرر الاسراع في الرحيل الى مصر • ولكنه بعد ظهر نفس اليوم ، وقع في حب فتاة جميلة شقراء ، كان قد قابلها مرتين خلال ربع ساعة في شارع ـ لوبيـــك ـ • فانساه هذا بسرعة مجموعة طوابعه ومصر والاهرامات ••

اما الفتاة الشقراء فكانت تنظر اليه باهتمام شديد • ولم يكن هناك شيء يحرك مشاعر النساء في ذلك الوقت ، كبنطال الغولف والنظارات اللامعة وكان هذا يضعهن في اجواء حفلات الكوكتيل وليللي كاليفورنيا • علم دوتايول لسوء الحظ من جان بول ، ان الفتاة الجميلة متزوجة من رجل قاس غيورشكوك يعيش حياة الليل • ويترك زوجته بانتظام بين الساعة العاشرة ليلا والرابعة صباحا ، وانه قبل خروجه كان يتخذ احتياطاته• فيقفل جميع المنافذ باقفال مزدوجة ، ويراقب زوجته بدقة متناهية في النهار، حتى انه كان يتبعها في شوارع مونمارتر الا ان تحذير جان بول ، لم يزد جذوة دوتايول الا ضراما •

وحين قابل المراة الشابة في شـــارع ـ تولوزيه ـ تجرأ على اتباعهـــا الى حانوت مشتقات الالبان ولما كانت تنتظر دورها ، فقد سنحت له الفرصة ليقـول ـ بانه يحبها ، ويعرف عنها كـــل شيء ، زوجها الشرير ، وبابها المغلق بالمفتاح ، ومع هذا فسيكون في غرفتها مساء •

احمرت المراة الشقراء ، وطفق وعاء حليبها يرتجف بيدها ، وقالت لـــه وعيناها تفيضان بالحنان وهي تتنهـد بضعف ـ •

ـ وآسفاه ياسيدي ، فما تقولـــه مستحيل •

وفي مساء هذا اليوم المشهود كـــان دوتايول امام منزلها حوالي الساعة العاشرة في شارع نورفان ـ يرقـــب السور الثخين ، حيث يقع خلفه منـزل صغير ، لايبدو منه سوى جهاز مؤشر الرياح والمدخنة •

فتح باب وخرج منه رجل واغلقـه بعناية خلفه • ثم نزل متجها الـى شارع ـ جينو ـ • انتظر دوتايول حتى راه يختفي بعيدا ، لدى انحناء الطريق المنحدر • وعد حتى العشرة ثم القـى بنفسه في الجدار بخطا رياضية• واستمر يعبر العوائق حتى دخل على الحسناء المعزولة في غرفتها • واستقبلته نشوى بلقائه وبقيا يتحابان حتى ساعـــة متأخرة •••

وشعر دوتايول في اليوم التالي بالم شديد في رأسه • فلم يمنعه هذا الشيء التافه مع ذلك من الذهاب الى موعده • وعلى كل حال فقد وجد ـ علـى غير توقع ـ بضع حبات متناثرة في قعر درجه فابتلع واحدة منها في الصباح واخرى بعد الظهر •

وفي المساء خفت الالم رأسه قليلا •• وانسته الباقي نشوة الحب• حيث كانت الشابة في انتظاره ، بكل فراغ الصبر الذي ولدته فيها ذكريات الليلة السابقة وبقيا يحتسيان هذه الليلة ، كـــؤوس الهوى حتى الساعة الثالثة صباحا ، حين غادر دوتايول المنزل واجتاز حواجـزه وجدرانه • فشعر باحتكاك غير معهـود بكتفيه وعجزه ، ولم يعر الامر اهتماما الا انه حينما دخل في جدار الســـور الخارجي شعر بوضوح المقاومة تماما ، وكانه يتحرك في مادة سائله ، اخـــذه بالتجمد • ومع كل جهد بذله للتخلص فقد احس بمقاومة اكثر •

وبعد ان اكتمل دخوله في ســمك الجدار ، شعر بعدم قدرته على التحرك الى الامام • وتذكر الحبتين اللتين ابتلعهما في النهار • هاتان الحبتـان ظنهما حبتي امبرين ـ وتحتويان فـي الحقيقة على مسحوق البريت الثلاثـي التكافؤ • والذي وصفه له الطبيب فـي السنة الماضية •

فتاثير الدواء ، مضافا اليه الاجهاد المفرط ، بدأ مفعولهما بطريقة مفاجئة وبقي دوتايول كالمتجمد داخل الجدار • ومازال كذلك حتى الان ملتصقـــا بالحجارة • ومازال المتنزهون ليلا ـ حتى اليوم ـ في شارع نوفـــان ، وفي الساعات التي تهدأ فيها ضجة باريس من العالم الاخر فيعتقدون ان هـــذا الصوت هو صوت عويل الريح قادمـا من تقاطع طريق ـ دولا بيت ـ • وما هذا سوى الفارو ـ غارو ـ دوتايول ، الذي ينذب نهاية سيرة حياته المظفرة ، والاسف على حبه القصير جدا •

وفي بعض ايام الشتاء، يتجول الرسام جان بول ، وقد علق قيثارة على كتفه ، متسكعا في شارع ـ نورفان ـ المقفر ، لكي يمزي باحدى اغنياته السجـــين المسكين ، وتنطلق النغمات من انامله لتدخل قلب الحجر كنقاط القمر •••

للكاتب

مارسيل ايمي

نقلها عن الفرنسية

محمد سعيد واحمد الكيلاني

رسائل الاصدقاء

هذه الرسالة كان قد ارسلها المرحوم ميشيل مغربي الى الاستاذ عيسى فتوح وذلك قبل وفاته في سان بولو

عزيزي الاستاذ عيسى فتوح دمت بخير وصحة وسلامة

منذ أمد طويل كنت أريد أن أكتب اليك، ويحول دون ذلك ما يحول ، الا أنني اليوم اطلعت على جريدة حمص ، لعددها الذي كان قد صدر في ١٩ آذار ١٩٧٦ ، وهذا العدد لم يصلني حتى اليوم ، وكل بريد غير جوي من الوطن لايتاح له الوصول . انما النادي الحمصي تصله جريدة حمص بالبريد الجوي ، فأوصلوا هذا العدد الي ، لاستفقادي مقالا لك فيه ، وهكذا اطلعت على مقالك عني وعن المرحوم وجيه الخوري ، وعلى قصيدته وقصيدتي . اطلعت أيضا على تعليقك على هاتين القصيدتين ، هذا التعليق الذي يشرح كل شيء ، فشكرا لك .

قلت انني منذ أمد طويل كنت أفكر أن اكتب اليك ، ويحول ما يحول . أما اليوم فلم يعد من شيء يحول . وأول ما أقول هو اعادة قولك «اننا سنظل أوفياء للمرحوم وجيه» نعم سنظل أوفياء ، وهو الذي كان رفيقي منذفجر الصبا ، قبل أن ترى أنت نور الوجود . ولكن وجيها أحبك ، ولم يحبك الا لصفات أحبها فيك ، وهذا لا شك فيه . فلاحبك أنا أيضا لاجل هذه الصفات .

استلمت اليوم أيضا عدد أكتوبر من مجلة (الاديب) ، وفيه مقالك عن المرحوم الشاعر شكر الله الجر . لقد وصل بعد ثمانية أشهر من صدوره ، لانه جاء بالبريد البحري . ولا عجب في ذلك ، والامور ما نرى في لبنان المسكين . واظن أن البريد البحري من سوريا يأتي عن طريق بيروت ، لا عن طريق اللاذقية ، والا لما كان نصيبه نصيب بريد بيروت .

أجل قرأت مقالك بعد أن كحلت عيني برؤية رسمك الجميل المرسوم فيه أيضا ، تتدفق منه دماء الشباب ، فسررت وأي سرور ، لانه زادني معرفة بك . أما أنا فلا أريدك أن ترى رسمي . في مقالك هذا عن المرحوم شكر الله وقد كان رحمه الله صديقا لي أنا أيضا ، وأي صديق أنيس، في مقالك هذا أقرأ هذه القطعة :

« ميشيل مغربي : يحسن من اللغات العربية ، وقليلا من الفرنسية ، ولعله أجود قريحة من شاعر شعراء حمص في البرازيل ، وأكثرهم تعدادا لمواضيعه ... » الى أن يقول — رحمه الله — « وعند من لا يعرف أديبا يظن أنه تاجر ازرار فحسب ... » .

ان المرحوم شكر الله لم يكتب عني الا كل ما يشكر عليه ، الا أنني في بعض أقواله عني ما يؤخذ عليه فيه ، لا لسوء قصد ، بل لسبق لسان أو عدم روية . انه يقول انني أحسن من اللغات العربية وقليلا من الفرنسية . صحيح أني لا أعرف الا قليلا من الفرنسية ، لا يزيد على كتابة ما يمكنني من كتابة الرسائل لعملائي في فرنسا ، وقد درستها بعد سن الاربعين لهذا المقصد نفسه ، على أن قريحتي كانت تنقح تلك الرسائل ، لانها تعرف الفرنسية جيدا . أما أن يعلمك أني أحسن العربية فلا أعلم ما القصد منه ؟ لعله كان يريد أن يقول أني أحسن الانكليزية ، وقد بدأت بدرس الانكليزية والعربية معا ، منذ أن أدخلوني الى أول مدرسة عند الصفر، وكان ذلك فيمدينة الاسكندرية ، مسقط رأسي ، حيث بقيت الى سن العاشرة ، ولما قدمت بي والدتي الى حمص ، وأنا في تلك السن ، أدرجني ذووي ، ولا أقول والدي ، لانني ولدت يتيما ، أدرجوني في الكلية الانجيلية حيث أتممت الاستعدادية ، وبعد أن أتممتها ، ظللت مثابرا على المطالعة في تلك اللغة ، وتمكنت منها تمكنا يقارب الاتقان بين المتعلمين من أهلها . انك لم تكن في حاجة لان يقول لك أني أحسن البرتغالية ، لغة هذه البلاد التي أقطنها منذ أكثر من خمسين عاما ، وانما سبق لسانه فقال أنني أحسن العربية ، بدلا من أن يقول أني أحسن الانكليزية .

ثم انه يقول : « وعند من لا يعرف أديبا ، يظن أنه تاجر أزرار فحسب » · هذا صحيح ، وذلك لانني تاجر ، والتجارة تقتضيني ذلك · هل يريدني أن أظهر لهم في مظهر الاديب ، أو أتكلم كلام أديب ، وأنا أقابل العملاء الذين هم نصف أميين ؟ انهم بلا شك ، اذا فعلت ذلك ، يشعرون بالنقص ويتهربون · انها خطة مني لم يكن منها بد · في قصيدة عنوانها « نجوى العاصي » نظمتهابعد خمس سنوات من وصولي الى البرازيل ، وكنت قد قضيت تلك السنوات الخمس وأنا أتجول في أنحاء البرازيل ، أعرض بضاعتي على المواطنين ، أصحاب الحوانيت التجارية البعيدة عن سان باولو ، ولم أنظم في أثنائها الا قليلا قليلا · في تلك القصيدة التي أصف فيها حالتي في تلك الاثناء ، ستجد هذين البيتين :

ولقد أطوف علي ستر تنكر للالمعية مبعد طراح
والقوم لايدرونأنيشاعر العاصي واني البلبلالصداح

أجل ستقرأ هذه القصيدة في ديواني ، وتعلم ان بساطة المظهر وبساطة الحديث ، كانا يقتضيان ذلك · كما أن عملي كان يقتضي ذلك · أما المرحوم شكر الله فلم ينجح تاجرا ، ذلك لانه كانت تنقصه السياسة · انه اشتغل في الادب فقط ، وأنتج انتاجا حسنا ، أما أنا فاليك ماأقول:

خضت التجارة والقريض معا
بحرين كل زاخر طمام

فقضيت عمرك في العباب ولم
تطفيء غليل فؤادك الظامي

لو لم تخض بحر التجارة لم
يبلغ قريضك أي عوام

ولكنت أثرى القوم عن ثقة
لو كنت للشعراء لم تنضم

ما شاء ربك كان لا تندم

اني أريد أيها العزيز أن أظهر لك بعض الحقائق لا أن أمتدح نفسي ، فما كنت قط من المتدحين ، ولاأعتقد الا أنني صغير بين أدباء المهجر · ولقد كان الكثيرونيكتبون لي لاوافيهم ببعض نتاجي ، فلا أجيبهم ، فكانت لذلك قسمتي في ما كتب عن أدباء المهجر ·

وقبل أن يفوت الوقت وأنسى ، الاحظ أيضا على قول المرحوم شكر الله عني أنه يقول : « ولعله أجود قريحة من سائر شعراء حمص في البرازيل وليس ما أقصد انكنت أجودهم قريحة في البرازيل أو غير البرازيل ، انما أريد أن أقول ان ليس جودة القريحة هي سمو الشاعرية · ان عبد المحسن الكاظمي الشاعر العراقي ، الذي كان معاصرا لشوقي وحافظ ومطران ، هذا الشاعر كانوا يقترحونعليه القافية والوزن ، فيملي عليهم في الموضوع الذي يريدونه السبعين والثمانين بيتا دفعة واحدة · وهذا ما لم يكن يستطيعه أحد هؤلاء الثلاثة ، ولا سيما حافظ ، الذي كان يقضي في نظم القصيدة شهرا أوشهرين ، ولكن هل كان الكاظمي ، مع جودة قريحته ، يسمو الى مطران وحافظ وشوقي ؟ ان البون شاسع بينه وبينهم · فليست جودة القريحة مقياسا للشاعرية· هذا ماأخذه على المرحوم شكرالله ان عندي رسما أخذ لنا نحن الثلاثة ، أنا وشكر اللهوموسى حداد ، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، سأفتش عنه وأرسله لمجلة (الضاد) لتنشره تذكارا ·

أنا أيها العزيز عيسى أقاسي نفس الداء الذي كان يقاسيه المرحوم وجيه ، الذبحة الصدرية ، وسيكون مصيري كمصيره قريبا · انني أعرف ذلك ، غير أنني أطلب من الله أن أنجز طباعة ديواني قبل أن يجيئني هذا الامر المحتم · ولقد ذللت العوائق الان ، وكنت مزمعا سابقا ، أن أطبعه في أحد مطابع بيروت ، ولكن صبرت كثيرا ، ولم تنته الحوادث في بيروت ، فاتفقت مع احدى مطابع سان باولو وسيبدأ به في نصف شهر حزيران ·

اني أحب أن أقرأ لك ، وأعتقد كل الاعتقاد أنك ستكون من كبار الكتاب · عندنا هنا مجلة (المراحل) ، فسأوعز الى صاحبتها مريانا دعبول أن تبدأ بارسالها اليك هدية مني · ولكن أريدك أن تكتب فيها · في أول مقابلة سأطلب اليها ذلك ، ولكن أرجوك أن توافيني بعنوانك في دمشق ·

أرجو أن تقدم عني أزكى التحيات الى يوسف عبد الاحد ، هذا الذي كان المرحوم وجيه يحبه كما يحبك ، ويذكره كما يذكرك ·

أختم كتابي هذا بشكرك لتعليقك علىقصيدتي وقصيد المرحوم وجيه ، وبقبلات أخوية صادقة وبتحيات زكية عطرة· قرينتي تبلغك كذلك أزكى التحيات، ولقد أخبرتني أنها كانت قد قابلتك وقابلت يوسف وتحدثت اليكما في منزل وجيه بدمشق ·

سان باولو ـ ميشيل مغربي
١٩٧٦/٥/٢٨

الى الشاعر سليمان عواد ـ دمشق

منذ مدة طويلة لـم اقرأ لك شيئا جديدا ، فهـل الكرسي في وزارة الاعلام قد اعاق ابداعك او اشراقتك كما يحلو للشاعر مصطفى النجار ان يسميها ، ام هو دوار الازمة الشعرية الذي يأخذ كل من ادركته حرفة الادب في هذه المرحلة .. ام ماذا .. ؟

سؤال شغلني فترة من الزمن ، حتى نمى الي انك عاكف على اعداد مجموعة شعرية جديدة للطبع تظهر فيها باعك الطويل في قصيدة النثر التي كنت من روادها في قطرنا ، فمن يكتب ـ شتاء ـ عام ١٩٥٧ ومن قبلها وفي عام ١٩٥٠ يكتب ـ شراع ـ :

اسرع ياشراعي فنفوس العبيد لن تجري مع تيارات الزمن
الطليعة المنورة ، لان دمها الفاسد ملطخ بالعار
ممزوج بالعبودية ....
اسرع ودع الزوارق المسحورة
بنشوة الرجعية والانحطاط تترنح جذلة طروبة
ريثما تداهمها اعاصير الزوبعة الهائلة .

وبعد عام يكتب ـ غفوة ـ حيث يقول :

وعندما اصحو .. اشعر كان نجمة زرقاء
هربت الي جبهتي
وحين المسها بيدي ، لا احس الا بانتفاضات حانقة
ترسلها اخاديد جبهتي .. فاضحك ساخرا
واقهقه مليا من عبق الحانه
وتمرد الظلال

ويستمر في كتابة ـ قصيدة النثر ـ طوال ثلاثين عاما جدير بالدراسة والبحث في هذا الشكل الشعري الذي تبناه مذ وعى حرفة الشعر ، وودق العاطفة في العلاقة بين الانسان والاشياء .

دمشق ـ عبد الكريم دندي

الى الشاعر حسين علي محمد ـ الزقازيق : مصر العربية

قرات ديوانك ـ السقوط في الليل ـ وقد خالجني وهم السقوط في الظلمة الداكنة ، ولكني حين اتيت على اخر قصائد المجموعة التي نشرتها بمساعدة اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ نهاية الرحلة ـ شعرت بعنفوان الشباب في مختلف نشاطاتك ، وان الخوف الذي تجسد في داخلك ما هو الا قدر المعذبين بالحرف في هذه الدنيا الفانية ياصاحبي :

ومركبي .. في الوحل ياصديق
اخاف من عواتق الطريق
اخاف من غدي المجهول
الخوف في خطاي
والموت فيك يا سهول

ولقد شعرت بما تكابد من الام الغربة في حياتك الادبية وان التشاؤم يسور رؤيتك الى الامور ، حتى العلاقات الطيبة :

اراك تسقطين
فراشة محروقة في الليل .. اراك تسقطين
والليل يستمر
اراك تسقطين والليل مستمر
والصبح لا يبين

ومهما يكن ، فان الشعر عربة الخلاص لكل نفس معذبة بقدرها في هذا العصر المضطرب ..

دمشق ـ عبد الكريم دندي

الى المؤرخ العلامة الاستاذ امين مدني

سلام من الله عليك ورحمة منه وبركات

اما بعد :

يسرني ان اعلمكم انني اطلعت على رسالتكم الموجهة الي على صفحات ـ الثقافة ـ الدمشقية الغراء ، والمنشورة في عدد تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٧٨ من المجلة المذكورة ولا يسعني الا ان اشكركم بالغ الشكر على ثقتكم بي ، وارجو ان اكون اهلا لهذه الثقة . واذ تفضلتم وطلبتم مني ان ارجع واتحقق من اسم ـ الجرمق ـ يسعدني والحالة هذه ان اورد لكم بعض ما تذكره المصادر الجغرافية والتاريخية حول هذا الجبل المعروف في بلادنا السليبة .

١ ـ موسوعة فلسطين الجغرافية ـ لقسطنطين خمار وهي موسوعة جغرافية صادرة عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وصادرة في بيروت سنة ١٩٦٩ تقول في صفحتها ٨٠ تحت عنوان ـ جبل الجرمق ـ ما ننقله حرفيا دون تغيير : ـ من جبال الجليل الاعلى يقع الى الشمال الغربي من مدينة صفد وهو اعلى جبال فلسطين ، اذ يرتفع ١٢٠٨ امتار عن سطح البحر يتراوح معدل سقوط الامطار عليه بين ١٠٠ و ١١٠ سنتمترات ـ .

٢ ـ المنجد في اللغة والاعلام يقول في صفحة ٢١٢ مايلي والجرمق ـ جبل ـ : اعلى جبال فلسطين يشرف على مدينة صفد ١٢٠٨ م . اكثر قمم جبال الجليل ارتفاعا

٣ ـ اما شيخ الربوة الدمشقي المتوفي سنة ٧٢٧ هـ فيقول في كتابه ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ ـ وصفد حصن بقية جبل كنعان في ارض الجرمق ـ ص ٢١٠ طبعة اوربا .

٤ ـ في حين يقول مؤلف كتاب ـ ولاية بيروت ـ ـ التميمي والكاتب ـ في الصفحة ٣٥٦ من كتابهما : ـ ورغما عن ذلك فان قصبة صفد المكشوفة من اطرافها الثلاثة تمثل منبر الشعر والحماس باطلالها على اراضي قضائي مرجعيون وصور من الجهة الشمالية وعلى بحيرة طبرية وغور بيسان من الجهة الجنوبية وعلى جبل زبود والجرمق من الجهة الغربية ـ .

٥ ـ اما المؤرخ الكبير الاستاذ مصطفى مراد الدباغ فيقول في المجلد الاول من موسوعته التاريخية ـ بلادنا فلسطين عن الجرمق مايلي : جبل الجرمق يقع شمال غربي صفد حيث يبلغ ارتفاعه ١٢٠٨ امتار : ٣٩٦٣ قدما . وهو اعلى قمم البلاد ومن الجرمق تتفرع عدة اودية مخصبة جهة الشمال الغربي والشمال الشرقي والشرق ، وليس من واد يمتد الى الجنوب ، قال ياقوت ـ ووادي الجرمق كثير الاترج والليمون.. قتل فيه علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن جميع الغساني اخو ابي الحسن بعد سنة ٤٥٠ هـ ـ . دعي الجرمق نسبة الى الجرامقة القبيلة العربية التي تركت منازلها في اليمن ونزلت شمالي فلسطين وجنوبي لبنان في العصور الماضية ، وخلدت اسمها في هذا جبل الجرمق هذا ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٦ ـ اما في كتابك تاريخ جكالا ـ و ـ جكالا ـ هو الاسم القديم لبلدتي ومسقط راسي الجش التي عنيت بكتابة تاريخها منذ اقدم العصور حتى اليوم وهي بلدة قديمة وتقع على التلال المطلة على جبل الجرمق كما تقع معظم اراضيها الزراعية على سفوحه الشمالية فقد وردت المعلومات التالية : جبل الجرمق ومن اهم المواقع المتميزة القريبة من الجش جبل الجرمق وهو يمتد اما مها كحاجز عظيم من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، اما كتلته الكبيرة فتقع قبالة الجنوب المنحرف قليلا نحو الغرب وقمته اعلى قمة في جبال الجليل بل اعلى قمة في فلسطين كلها اذ ترتفع ١٢٠٨ امتار عن سطح البحر .

وسمي الجرمق نسبة الى مدينة الجرمق الدائرة والتي كانت تقوم في اعلى نقطة منه وتسكنها قبيلة الجرامقة العربية التي تعود باصلها الى عرب اليمن على ان شيخ الربوة الدمشقي المتوفي في صفد سنة ٧٢٧ هـ وصاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ يرجع نسب الجرامقة الى العبرانيين ، في حين ينسبهم بعض المؤرخين الى الاراميين ، ومن الجرمق تتفرع عدة اودية اشهرها وادي الجرمق وقد شاهده ياقوت الحموي وقال عنه ووادي الجرمق كثير الاترج والليمون ، قتل فيه علي بن الحسين بن احمد ابن جميع الغساني ، بعد سنة ٤٥٠ هـ ، ويسميه الاهلون ايضا بجبل الزابود نسبة الى خربة الزابود الباقية اثارها الى اليوم والتي كانت ماهولة بالسكان الى زمن قريب . وجبل الجرمق مكسو بالاشجار الوعرية ، اما سفوحه فمفروشة باشجار الزيتون ، كما تزرع بالحنطة والشعير والجلبان ، واشهر تلك الاراضي النمورة السالفة الذكر ، وتشترك في ملكية سفوحه الشمالية اربعة بلدان هي الجش سعسع الصفصاف وميرون ، اما سفوحه الجنوبية فمعظمها ملك لاهالي القرى الدرزية كبيت جن وغيرها .

وقمة هذا الجبل تشرف على البحر الابيض المتوسط غربا وعلى بحيرة طبريا ومدينة صفد شرقا ، وجبال الجولان وبحيرة الحولة وسهل الغور وجبل حرمون شمالا .

وان انس لا انس صباح ذلك اليوم المشرق الجميل من ربيع سنة ١٩٤٤ م يوم اتفقنا نحن طلاب مدرسة الجش مع استاذنا المرحوم الشماس اتناس يوسف عقل على الصعود الى القمة ، كان استاذنا رحمه الله بدينا للغاية وذا لحية طويلة كثة اشبه بلحية كاهن اشوري وكان يرتدي ثياب الكهنوت السوداء وهي عبارة عن مسح اسود طويل ، ويعتمر قبعة صفراء كبيرة . كان وزنه يزيد على مائة وثلاثين كيلو غراما ويميل الى القصر ، حتى ان رقبته تكاد تلتصق بكتفيه وكنا نحن صغارا كالعفاريت ـ كنت انذاك في الصف الرابع الابتدائي . كنا نسبقه لخفتنا ونجلس في الاعالي لنستريح حيث يلحق بنا وهو يلهث وقد توردت وجنتاه المحتقنتان، وكاد الدم ينفجر منهما وقد نضحه العرق ولكنه وللحقيقة والتاريخ نقول : انه كان يتمتع بارادة عجيبة وحب على الاكتشاف عظيم ، ويتميز بعناد اهل الجبال وشجاعتهم الرائعة ويحب ان ينقل هذه الصفات الى تلامذته ولهذا فقد ظل يناضل ويجاهد ، حتى استطاع ان يرتفع معنا الى قمة هذا الجبل الشاهق ، ووقف يشير لنا باصابعه القصيرة الثخينة ، شارحا المواقع واحدا اثر واحد ومشيرا الى جمالها بدهشة محببة ، آه رحمه الله .. لقد جعلنا نشاهد منظرا من اجمل واروع مناظر الدنيا .

هذا ولا يسعني في ختام هذه اللكمة الا ان اهدي التحيات الطيبات المباركات لعالمنا الجليل الاستاذ امين مدني سائلا الله تعالى ان يمن عليه بالمزيد والصحة والعافية ليتحفنا في ايامه القادمة ببحوثه القيمة التي تسد فراغا كبيرا في الخزانة العربية ، وسلام عليه ورحمة من الله وبركات .

دمشق ـ خليل خلايلي

محتويات العدد

١	كلمة العـــدد	رئيس التحرير
٢	وداعـــا ايها الشـعر	علي المصري
١٤	اسماعيل مظهر ومنهجه في النقد	د . جليل كمال الدين
١٨	احســان العظم . قصـة حياة	وليد قنباز
٢٤	رثـــاء	منذر الشعار
٢٦	احســان العظم رجل الثقافة والعلم	عبد الرزاق الاصفر
٣١	وداعـــا ابا انـس	نذير الحسامي
٣٤	اضواء على شخصية ابي انس	سهيل عثمان
٣٦	ماتم الفكر	عدنان قيطـــاز
٣٨	كلمة آل الفقيـد	هشام العظم
٤٢	رسـائل وبرقيات	
٤٤	ابو الاسـود الدؤلي شـاعرا	جودت صالح
٤٨	الوجه الاخر للحزن	رضـا رجب
٤٩	حوار بين فار وفيلسـوف	احمد عوض النشاش
٥٢	احزان رجل منسي	بلقاسم البرهومي
٥٤	عابر الجدران	ترجمة : محمد سعيد واحمد الكيلاني
٥٩	رسـائل الاصـدقاء	